721

روايات عبير

WWW.REWITY.COM

مـــرمـــوريـــة

Deborah Hooper

رجلٌ بلا قَلْب

الأصليّة

روايات عبير

«رجلٌ بلا قَلْب»

«ساندي» فتاةٌ تَركتْ بَلدَها ووالديْها وذهبتْ إلى «اسكتلندا» لتُلبيَ طلبَ ابنة خالها «مرتا» لتُساعدَها على تربية ابنها الصغير حيث إنها تجدُ صعوبةً في تربيته والتعامل معَهُ، وذلك بعد أن تُوفِّي والده في حادث سيارة مُفجع في سباق للسيارات. وهناك تَلتقي «ساندي» عمَّ الطفل الذي كان منطويًا، متحفظًا، وغريبَ الأطوار ولم يكنْ محبًّا ولا يؤمن بالحُبّ، إلا أنه عندما رأى «ساندي» أحبّها وطلب الزواجَ بها. فهل تُلبي «ساندي» طَلبَه، أم تعودُ إلى بلدها ووالديْها؟

www.rewity.com
مـــر

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338056 -2
9 789953 380568

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Living Dangerously

تأليف
Deborah Hooper

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مـــرمـــوريـــة

رجل بلا قلب

(721)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون: 666 212 9 961 00 – فاكس: 665 212 9 961 00
ص.ب 374 جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

كانت الحافلة تسير ببطء على جسر ضيق يمر فوق نهر. نظرت «ساندي فيليبس» من النافذة قربها وقرأت كلمة «اسكتلندا» على إشارة موجودة إلى جانب الطريق. وصلت «ساندي» إلى هذا القسم من «بريطانيا» الذي لم تزره من قبل. شعور مثير انتابها. «اسكتلندا» بلاد جبلية مليئة بالمستنقعات. فيها أودية صغيرة. وقلاع وحصون قديمة أثرية. ومزارع صغيرة مسوّرة وحقول واسعة. سار فوق هذه الطرقات من قديم الزمان مئات من جنود الرومان ابتلعتها القفار الواسعة هنا، وضاعت في البراري وضاعت آثارها.

لم تستغرب «ساندي» ضياع فرقة من الجنود هنا بعد أن جالت ببصرها من نافذة الحافلة في الحقول الواسعة التي كانت الطريق تخترقها. المطر ينهمر والضباب يغمر الحقول الخضراء الرمادية المشبعة بالمطر. خلف الحقول تطل تلال بعيدة هي متعة للنظر. ربما ستبتلعها القفار كما حصل لفرقة الجنود الرومانية. لم لا؟ سرحت «ساندي» بخيالها عبر عصور التاريخ، هي تحلم في وضح النهار، حتمًا ستبتلعها السهول الواسعة إذا حاولت رؤية ماخلفها في البعيد البعيد. انحرفت الحافلة إلى الشمال، قرأت لوحة جانبية على الطريق كُتب عليها «غرتناغرين». تذكرت هذه القرية الصغيرة وما تحمله من أحلام رومانسية. كان العديد من الشباب والشابات يقصدونها ليتزوجوا خطيفة.

هذه هي الرحلة الأولى لـ «ساندي» إلى «اسكتلندا». رحلة طويلة قطعتها من «لندن» إلى «كارليزل» بسيارة عمومية كبيرة مخصصة للمسافات الطويلة. سريعة الحركة ولكنها مريحة. توقفت عدّة مرات على الطريق. رحلتها عبر «اسكتلندا» من مدينة «غالوي» كانت معتدلة السرعة والطريق معظمها مطبات.

لم تشعر «ساندي» بأي عناء. منذ الصباح وهي على الطريق تجلس مستقيمة، أكتافها مرتفعة وعيناها مفتوحتان، متحمسة ومتيقظة لكل ما يدور حولها في الداخل والخارج. «ساندي» فتاة طويلة نحيلة، ساقاها طويلتان وهي ترتدي بنطلونًا من الجينز، أزرق باهت اللون مع قميص قطني، فوقه سترة مانعة للمطر، شعرها الطويل المنسدل، مفروق في الوسط يتدلى فوق كتفيها بلون

الرمال الصفراء. تخرجت «ساندي» منذ شهرين في الجامعة، تحمل شهادة بكالوريوس في علم التاريخ. بعد أن أمضت ثلاث سنوات في الدراسة والتعمق توّجتها بالنجاح، عملت منذ تخرجها في عدة وظائف مختلفة لتشغل نفسها بها في مدينتها، حيث تعيش في كنف والديها، كانت ترغب في جمع بعض المال الضروري لمتابعة تحصيلها الجامعي لنيل شهادة أرفع في تخصصها.

تلقت رسالة من ابنة خالها «مرتا» دون انتظار. قرأتها بتمعن. كانت «مرتا» تتمنى أن تقبل دعوتها لتمضية فصل الصيف عندها. «مرتا» ابنة خالها شابة متهورة، تحب الحياة واللهو. ترملت فجأة بعد موت زوجها «كروفورد كالدويل» بحادث سيارة مفجع في سباق للسيارات، وترك لها ولدًا في عامه الثاني. تقول «مرتا» في رسالتها إنها تكتب إليها من بيت جدود زوجها في «اسكتلندا». فتحت «ساندي» حقيبة يدها الجلدية وأخرجت منها الرسالة وأعادت قراءتها:

«عزيزتي «ساندي».

كما ترين من العنوان الموجود على الرسالة، إنني وصلت سالمة إلى «دانكريغان»، كانت صدمة لي عند وصولي؛ إذ اكتشفت أن والد زوجي «كافن» قد توفي منذ سنتين. ولم تكن أنا وزوجي «كروفورد» نعرف هذه الحقيقة. من المؤكد أن اتصالات ومحاولات عديدة لإعلام زوجي بالخبر، في حينه، باءت بالفشل. كانت جميع هذه الرسائل تعاد لصاحبها؛ لأن المرسل إليه غير موجود ولا عنوان جديد لديه. كان هذا ما دفعناه أنا وزوجي ثمنًا لتكرار انتقالنا وعدم استقرارنا في مكان ما.

يملك المزرعة الآن «ليماند» الشقيق التوءم لزوجي. هي قلعة قديمة وقربها منزل جديد نسكنه، يسمونه كذلك مع أنه ليس جديدًا؛ لأنه بني منذ عشرين سنة. ستحبين العيش هنا في هذا المكان التاريخي الذي يرتبط بالماضي. دعاني «ليماند» لأعيش هنا مع ابني «ديرميد» وقد قبلت دعوته. وصلت منذ ستة أسابيع. وقررت البقاء في «دانكريغان» من أجل ابني كي يتربى في منزل جدوده. هنا تربى والده «كروفورد» وترعرع، وسأتيح لابني فرصة التمتع بالامتيازات ذاتها التي كانت لوالده من قبله ولذلك سأبقى هنا.

عزيزتي «ساندي»، أحتاج إلى مساندتك المعنوية، مساندة لا تأتي إلا من

فرد من أفراد العائلة الواحدة، وأنت أقرب إليّ من شقيقتي في هذه الحياة. أقترح عليك، إذا لم تكوني مرتبطة بعمل ما لهذا الصيف، أن تحضري إلى هنا لتساعديني على رعاية ابني «ديرميد» مقابل سكنك ومعيشتك، في خلال عطلة الصيف. إنه شيطان صغير وأنا أجد صعوبة في ملاحقته وحدي. أتذكر دائمًا رعايتك له يوم نزلت عندكم في «إنجلترا»، عند عمتي «جين» وعمي «توم»، والديك، بعد وفاة زوجي. أنا متأكدة أن وجودك معنا في «دانكريغان» سيساعدني وابني على الاستقرار.

يوم وصلت ومعي ابني، استقبلني كل من في المنزل بحرارة وود. تعرفت إلى بعض الأصدقاء الجدد. إنني أجد «ليماند» متحفظًا ومنطويًا وغريب الأطوار. أرجوك يا «ساندي» أن تحضري؛ لأن وجودك يساعدني كثيرًا ولأنك من لحمي ودمي ويمكنني أن أثق بك في رعاية ابني. إذا وافقت على الحضور أعلميني متى؛ وكيف؛ وأين ستصلين؛ وسأرسل من يستقبلك».

طوت «ساندي» الرسالة وأعادتها إلى حقيبتها. يوم تسلمت «ساندي» الرسالة وأطلعت والدتها عليها كان ردها الفوري:

– عليك بالذهاب. إن ابنة خالك «مرتا» تعرف ما عليها من واجب لكنها، كما هو واضح، تجد صعوبة في تحقيق غايتها. صحيح أنها ستبقى هناك من أجل ابنها ولكنني أقرأ بين السطور أنها تخاف من شقيق زوجها. اذهبي يا «ساندي» وابقي قربها وامسكي بيدها وشجعيها. «مرتا» تحب من يمسك بيدها ويحميها ويشعرها بالحب والاهتمام. وعلى الفور بدأت «ساندي» استعدادها للسفر وأكملت المعاملات الضرورية له واستعملت الحافلة؛ لأنها أرخص وسائل النقل إلى «دانكريغان». وها هي الآن تدخل بلدة «عنان».

توقفت الحافلة في الشارع العريض الذي بللته الأمطار.حركة السير عظيمة. بدأ اللغط باللهجة الاسكتلندية في حركة نزول وصعود الركاب. جلست امرأة بدينة قرب «ساندي». اعتذرت لها؛ لأنها ستأخذ قسمًا كبيرًا من المقعد المزدوج. كانت تحمل باقة ورد جميلة في يدها. أبدت «ساندي» إعجابها بالورد فأخبرتها المرأة بأنها في طريقها إلى المستشفى في «ديمفريز» لتزور ابنتها التي وضعت مولودها الأول. كانت المرأة سعيدة جدًا بحفيدها وقالت مخاطبة «ساندي»:

– عرفت من لهجتك أنك لست من هنا.

– كلا، أنا غريبة. قدمت من «هامشير» في جنوب «إنجلترا» وفي طريقي إلى حصن «دانكريغان».

– أوه! لكن لماذا تقصدين هذا الحصن؟

– لأبقى في ضيافة ابنة خالي التي تسكن هناك. هل تعرفين المكان؟

– آه، نعم، لقد تربيت في مكان قريب من الحصن وما يزال شقيقي يملك مزرعة بالقرب منه.

– إذن أنت تعرفين أصحاب الحصن والعائلة التي تملكه؟

– «الكالدويل السود» تعنين؟ تنحنحت المرأة وأكملت:

– ليس هناك ما لا أعرفه عنهم.

– أخبريني لماذا لقبوهم بالسود؟

– هو يا صغيرتي لقبهم؛ لأن لون بشرتهم يميل إلى السواد فشعرهم أسود فاحم وكذلك عيونهم سوداء. ربما أيضًا لقبوهم بالسود نسبة إلى أعمالهم السوداء في الماضي.

– ما هو نوع أعمالهم السوداء؟

– أعمال بشعة كالسرقة، النهب، التهريب وما شابه.

– ماذا كانوا يسرقون؟

– كانوا يسرقون الماشية من الغير، كالخراف والبقر وغيرها. كان العديد من الناس يقومون بمثل تلك الأعمال، ولكنهم يبزونهم ويتفوقون عليهم. ومع الأيام أصبحوا من الأثرياء وبالتالي احترمهم الناس لمالهم. سمعت أن الرائد السيد «كافن كالدويل»، الذي توفي منذ سنتين، مات مفلسًا. عمل في الجيش، مثل جدوده، واستحق العديد من الميداليات لبطولات أحرزها في الجيش. كان السيد «كافن» منطويًا على نفسه ومنعزلاً عن الناس بعد وفاة زوجته وحزنه عليها. كانت زوجته وقحة ومتهورة وقد تركت له ولدين توءمين ليعتني بهما ويربيهما. شيطانان، شرسان، وغدان ولا يستغرب ذلك فسوء تصرفهما أكبر شاهد على أنهما ينتميان إلى هذه العائلة السوداء. يعيش كبير التوءمين في الحصن الآن. ترك منزل والده منذ اثنتي عشرة سنة بعد أن تشاجر مع والده لسوء تصرفه مما حط من قدر العائلة، ثم عاد ليرث الأملاك. هو صارم

وقاس جدًا.

تشعب الحديث بين «ساندي» وجارتها البدينة وشمل مواضيع أخرى. وصلت الحافلة إلى ضاحية بلدة أخرى. نزلت المرأة الثرثارة وتابعت الحافلة سيرها ببطء. كانت «ساندي» تراقب المنازل وقرميدها الأحمر. حجارتها بللها المطر. مرت أمام ساعة قديمة في برج قديم في الشارع الرئيسي. ثم وصلت الحافلة إلى ساحة كبيرة قرب النهر حيث نهاية الرحلة.

نزلت «ساندي» من الحافلة إلى الشارع المبتل. لفحها الهواء البارد على وجنتيها كما داعب خصلات شعرها الأصفر المنسدل على كتفيها. كان صوت انسياب مياه النهر فوق السد يصل إلى سمعها. تساءلت: هل حضرت ابنة خالها لاستقبالها؟ سمعت صوتًا خلفها يناديها:

– آنسة «فيليبس»؟ كان صوت رجل بارد، غير مميز. كأنه لايهمه إن كانت هي الآنسة «فيليبس» أم غيرها. التفتت «ساندي» ناحية الرجل الذي ناداها. كان يقف خلفها مباشرة، أطول منها بقليل. عريض المنكبين، ويلبس سترة صفراء واقية من المطر. شعره الأسود القصير المبلل ينسدل فوق جبهته دون ترتيب. ياقته مرفوعة إلى أعلى اتقاء للمطر. وجهه ممتلئ وصارم دون أي ابتسام. تجلت قساوته في شدّة سواد عينيه.

– نعم أنا الآنسة «فيليبس»، من أنت؟ أجابها باقتضاب:

– «كالدويل» من «دانكريغان». تساءلت «ساندي» وهي تنظر إلى الرجل الواقف أمامها: «إلى أية طبقة تنتمي هذه العائلة في علم الأنساب؟» لابد من أنه «ليماند» المنطوي، المنعزل، الغريب الأطوار. هو بعينه وريث حصن «كالدويل» وممتلكاته. سألها بجفاف وهو يشير إلى حقيبة صغيرة بقربها:

– هل هذا كل ما تحملينه معك من متاع؟ أجابته وهي تحاول الابتسام، رافضة أن يسخر منها ويحط من قدرها قائلة:

– نعم، أنا أسافر خفيفة. رمقها بنظرة آمرة وقال:

– الشباب عادة يسافرون هكذا. كان في إجابته حزم أكيد على أن الحديث قد انتهى. حمل لها حقيبتها على كتفه وأدار ظهره ومشى أمامها قائلاً:

– السيارة واقفة في الجهة الأخرى من هنا.

كان على «ساندي» أن تتبعه عبر الشارع العريض المبلل إلى سيارة قديمة

بالية. وكانت تأمل أن تجد ابنة خالها «مرتا» وابنها في انتظارها داخل السيارة؛ لترحب بوصولها. لكن السيارة كانت فارغة من البشر. فتح «ليماند» صندوق السيارة الخلفي ووضع فيه الحقيبة فوق عدّة متنافرة الأشكال مختلفة الأنواع ثم أقفل الصندوق. أمرها قائلاً:

– ادخلي! ثم مشى هو إلى المقعد خلف مقود السيارة فقالت له:

– هل أجلس في المقعد الخلفي أم الأمامي؟ أجابها دون أي اكتراث:

– كما يحلو لك! الأبواب كلها مفتوحة. فشعرت بأنها بدأت تكرهه وترفضه، لم تنتظر منه أكثر من لياقات أولية في معاملتها. كان عدم اكتراثه لها وقحًا ومريرًا ويصعب عليها احتماله.

وجدت كيسًا صغيرًا أمام المقعد الخلفي على أرض السيارة، لذلك اختارت «ساندي» المقعد الأمامي. دخلت بعد أن أدار «ليماند» محرك السيارة. خلع سترته الواقية ورماها على المقعد خلفه، كان يرتدي طقمًا رماديًا مخصصًا للصيد مصنوعًا من أجود الأقمشة، وكنزة سوداء لها قبة عالية. أدار المحرك وحل الكابح وبسرعة قفزت السيارة عدّة قفزات ومشت بعدها بصعوبة. مشت فوق الجسر إلى جهة الشمال وتوقفت على المفترق تنتظر دورها للمرور. نظرت «ساندي» إلى إشارة جانبية على الطريق كتب عليها. «غلاسكو» إلى اليمين، من ضمن لائحة بأسماء مدن أخرى. أضاء اللون الأخضر وتابعت السيارة تحركها إلى الأمام.

كانت مسّاحات الزجاج الأمامي تزيل الأمطار وهي تزقزق؛ لأنها تحتاج إلى التزييت، والمحرك يخرج أصواتًا نشازًا. لم تكن تنتظر «ساندي» سيارة مهترئة كهذه. كانت ابنة خالها تخبرها بأن عائلة زوجها «كروفورد» من الميسورين ويملكون أفخر الأثاث ويقتنون سيارات السبور والليموزين وغيرها من السيارات الفخمة.

بدأت رائحة تزكم الأنوف تنتشر داخل السيارة. نظرت «ساندي» حولها متفحصة. لفت نظرها الكيس الموضوع في أرض السيارة خلفها. أعادت التحديق إليه. رأت عجلا صغيرًا داخل الكيس ولا يظهر منه سوى رأسه. كانت عيناه مغلقتين. تمنت «ساندي» ألا يكون ميتًا. استراحت «ساندي» بعد أن عرفت مصدر الرائحة الكريهة. نظرت عبر النافذة تتسلى. مرت السيارة

بالمنازل القديمة من البناء الحجري الجيد يعلوها القرميد الأحمر وتلفها الشجيرات الوردية كأنها أكاليل الغار، وغيرها من المنازل التي بدأت تلمع الأنوار من داخلها لتبدد العتمة التي بدأت بداخلها باكرًا مع المطر الشديد. تابعت السيارة سيرها وسط حقول شاسعة رمادية بعضها مزروع بشجر الحور القاسي... أو الدردار.

ودّت «ساندي» لو تستطيع أن تطرح على رفيقها بعض الأسئلة ولكنها لم تجرؤ، لأنه كان يلف نفسه بجدار من الصمت الآمر. استرقت «ساندي» النظر إليه بمكر من طرف عينيها. تذكرت جميع الصفات التي أسبغتها عليه المرأة البدينة في الحافلة «رجل اسكتلندي قاس وصلب». أعادت النظر. نعم هو كذلك. وجهه وجبهته العريضة وشموخ أنفه... مع فمه الدقيق وفكه ينحرف في زاوية معينة كأنه تمثال حجري... إنه يشبه تمثال الفارس النورماندي الموجود فوق قبر في بلدتها «هامشير» بداخل الكنيسة.

سافرت «ساندي» مع أحلام اليقظة عبر التاريخ وهي تنظر من النافذة إلى البعيد. لابد من أن مؤسس عائلة «كالدويل» هو فارس نورماندي. تخيلته قادمًا من شمال «إنجلترا»؛ ليساعد الملك «داود» الأول على تثبيت دعائم ملكه في «اسكتلندا» وبالمقابل أعطاه الملك الأراضي الواسعة مكافأة له على مساعداته. فرحت «ساندي» بأسطورتها. التفتت إلى «ليماند» الجالس بجانبها؛ لتستفسر منه عن أصله وتعرف إلى أي مدى توصلت إلى الحقيقة في تخيلاتها، لكنها أجبرت على السكوت. هو غير مبالٍ بل متعالٍ. كأنها لم تكن موجودة معه داخل السيارة.

نظرت من جديد عبر النافذة لتكمل نظريتها. «كالدويل» هو فارس أسود قادم من التاريخ البعيد. يلبس درعًا أسود يوم القتال في المعركة. فارس أسود يقوم بالأعمال السوداء ولكنه شجاع. بطل من أبطال الحروب. بدأت السيارة تصعد تلة وتجري سريعة في خط مستقيم. كانت كالسهم تخترق طريقها بين الأشجار السوداء وبدت الطريق شديدة العتمة. الإضاءة الأمامية للسيارة ضرورية. أرتال السيارات قادمة من الجهة المعاكسة تلمع أضواؤها كذلك.

تشجعت وقالت دون مقدمات:

– كم من الوقت يلزمنا لنصل إلى حصن «دانكريغان»؟ قال لها:

– ساعة أخرى. قطع الصمت أخيرًا. لابد له من أن يجيب عن سؤالها. هو رجل قليل الكلام. هذا واضح. تململت «ساندي» في مقعدها. خفضت رأسها مسافة صغيرة وأسندته إلى حافة المقعد الخلفية لترتاح قليلاً:

– هل توجد مدينة بالقرب من الحصن؟

– «كيركتون».

– هل هي مدينة كبيرة؟

– كلا، ربما خمس آلاف نسمة أو أقل.

– هل يمكنني الذهاب من «ديمفريز» إلى «كيركتون» بالحافلة؟

– يمكنك. كأنها تخرج الماء من الصخر، كانت تستخرج كلماته بصعوبة. لم تيأس «ساندي» من جره إلى الحديث. كيف يمكنها أن تبقى ساعة أخرى معه في هذه السيارة دون أن تشاركه الكلام. هذا غير معقول. بدأت تقول:

– كان يمكنك ألا تحضر لاستقبالي إلى «ديمفريز». كنت أستطيع الوصول بالحافلة إلى «كيركتون» بمفردي. ران صمت من جديد، لم يعلق. عرفت أنه لن يتجاوب مع دعوتها إياه لفتح الحديث. قدمت سيارة من الجهة المعاكسة ورشت الزجاج أمامه بالوحل. المساحات الأمامية تعمل على إزالتها بصعوبة. شتم السائق الآخر. وقال:

– لم أتضايق قط من الحضور لاستقبالك. ثم أكمل ببرود قائلاً:

– كنت في موعد عمل في «ديمفريز». وقد طلبت إليّ «مرتا» أن أستقبلك في المحطة هذا المساء.

– شكرا، هذا لطف منك.

– أبدًا. أنا لا أفعل إلا ما يناسبني. لو أخذت الحافلة بنفسك إلى «كيركتون» ستصلين في الحادية عشرة والنصف ليلاً. وكان لابد لي أو لـ «جولي» من استقبالك في ذلك الوقت المتأخر، فاستقبالك في «ديمفريز» يناسبني أكثر. صمت آخر.

وصلت السيارة إلى أعلى التلة ثم نزلت إلى الجهة الثانية. طوت السيارة المزيد من الحقول والقرى الصغيرة وبعض التجمعات السكنية. ازداد المطر انهمارًا. تأكدت «ساندي» الآن أن «ليماند كالدويل» لا يرحب بها في «دانكريغان». ربما دعتها «مرتا» دون أن تستأذنه أولاً. فكرت في الأمر، وبدأت تتجهم

وتعبس بعد أن استعرضت صفات وتصرفات ابنة خالها. «مرتا» تتصرف دائمًا بتهور وسرعة ودون تروٍ. بدأت تقول:

– أرجو أن يكون بقائي مع «مرتا» في «دانكريغان» لنهاية الصيف ممكنًا.

التفت بسرعة ناحيتها ورمقها بنظرة تساؤل من طرف عينه. أعاد نظره من جديد إلى الطريق أمامه. كانت الطريق لزجة، سريعة الانزلاق. سألها:

– كم ستبقين؟ هل دعتك «مرتا»؟ صدق حدسها. كانت على صواب في تفكيرها. ارتبكت كثيرًا. أحرجت. شعرت بالخزي وبأن كرامتها قد هدرت.

– نعم، لقد دعتني. ثم أكملت بصوت خفيض:

– ألم تخبرك؟

– كلا، كل ما قالته لي هذا الصباح، لما علمت بأنني مسافر إلى «ديمفريز»، أن لها قريبة ستصل بعد الظهر لتتفرج على الحصن. فهمت من كلامها أنك ستمكثين ليلة واحدة في طريقك إلى مكان آخر.

جمدت «ساندي» من هول المفاجأة. لماذا لم تخبره «مرتا» بالحقيقة؟ نظرت إلى وجهه الصارم وتكهنت السبب. إنها لم تجرؤ. ربما كانت «مرتا» تخاف ألا يوافق «ليماند» على طلبها في أن تبقى ابنة عمتها عندها بقية الصيف. لهذا لم تسأله. نظرت «ساندي» إليه خجلة وقالت شارحة:

– لقد كتبت لي «مرتا» تدعوني لمساعدتها على رعاية ابنها «ديرميد». سألها:

– هل هذا هو عملك؟ هل أنت مربية أطفال؟

– كلا، إنه عمل مؤقت في خلال إجازة الصيف. رمقها بنظرة جانبية أخرى على الرغم من العتمة التي عمت السيارة من الداخل وقال بحدّة:

– آمل ألا تنتظري أن تدفع لك أجرًا على عملك هذا.

– أوه، كلا، لقد كتبت لي «مرتا» لأساعدها مقابل سكني ومعيشتي! أحسّت «ساندي» بمذلة، مما جعلها ترى نفسها ضئيلة أمامه. ما أصعب أن يكون الإنسان محتاجًا! إن «ليماند» يتصرف بكبرياء وعنجهية أمراء الإقطاع، جدوده. وهي أمامه تستجدي مساعدته ونظرت إليه بترجٍ وقالت:

– سيد «كالدويل»، أنا أشعر بخجل من تصرفات ابنة خالي غير اللائقة. كان عليها أن تستأذنك أولاً.

www.rewity.com

– أنت على حق، كان عليها أن تسألني أولاً. مؤخرًا اكتشفت أنها غير صادقة وتستعمل طرقًا ملتوية. أنا لا أفهم لماذا تحتاج إلى أية مساعدة على رعاية وتربية ابنها. هي لا تعمل أي شيء سوى رعايته.

– معظم الأمهات يحتجن إلى بعض الوقت ليتفرغن فيه لأنفسهن وراحتهن. كذلك «مرتا» مثل بقية الأمهات تجد في الأمومة عائقًا مضنيًا يشغلها معظم أوقاتها. وجدت «ساندي» نفسها تشرح له نظريات تتعلق بالأمومة لم تخطر لها ببالٍ من قبل. هي نفسها لا تفكر في أن تمر بهذه التجربة قبل سنوات عديدة أخرى.

– لماذا تقولين أغلب الأمهات؟ لماذا ترفض «مرتا» مسؤوليتها كأم على عكس الأمهات؟

– لا أظنها ترفضها. ولكنها مسؤولية كبيرة عليها وحدها وهي ما تزال صغيرة السن.

– عرفت أمهات أصغر منها بكثير.

– لا تنسَ أنها الوحيدة المسؤولة عنه في غياب والده.

– وهل هذا جديد تحت الشمس؟

– كلا، إنني فقط أحاول أن أشرح لك شعورها ونفسيتها. فهي تحب الحياة... قاطعها قائلا:

– يعني أن تتمتع هي أولاً؟ ولا فرق بعد ذلك من يتألم من بعدها. كما أن ذلك يعني أن حياتها مع «كروفورد» كانت موفقة وعظيمة. فهو الزوج الملائم لها لأنهما كانا متفقين على حب الحياة واللهو، لكن ألم يكن موته كافيًا ليبطئ من غليان حب الحياة في شرايينها ولو قليلا؟ أجابته «ساندي»:

– وهل تنتظرها أن تلف نفسها بوشاح أسود بقية حياتها تندبه وتبكيه؟ وفكرت في نفسها، ربما يكون «ليماند» من الطاهرين المتزمتين الذين قرأت عنهم. هم فئة من البشر لا تهتم بمتع الحياة بل تدعو إلى التمسك الصارم بأهداب الدين والأخلاق الفاضلة. وضحك ضحكة عالية ساخرة تهكمية، لكن «ساندي» لم تتبين وجهه من الظلمة التي أطبقت على داخل السيارة بعد أن عمَّ الظلام مع دخول الليل، وقال:

– لا، لا أنتظر منها ذلك أبدًا. متى رأيت «مرتا» آخر مرّة؟

– بعد الحادث مباشرة يوم رجعت إلى «إنجلترا» حزينة. استغرقنا وقتًا طويلاً لإخراجها من عزلتها إلى الحياة. والدتي عمتها هي التي رعت «مرتا» طفلة صغيرة بعد موت والديها قتلاً، تمنت عليها البقاء عندنا، ولكنها صممت على الحضور مع ابنها إلى «اسكتلندا»، كما وعدت زوجها «كروفورد»، فإذا حصل له حادث في طريق السباق فعليها أن تأخذ «ديرميد» إلى جدّه ليراه. لم تكن تعرف أن جدّه قد توفي.

– وهذا أيضًا ما عرفته منها «همهم» وأنا لم أكن أعلم أن أخي قد تزوج وعنده ولد قبل حضورها إلى الحصن منذ عدة أسابيع. ألم يخطر ببالها أن تكتب أولاً وتستأذن بالحضور إلى «دانكريغان»؟ أجفلت «ساندي» من انتقاداته اللاذعة، المبطنة لـ «مرتا»، وعدم لياقتها في التعامل مع الآخرين. صمتت «ساندي» مفكرة وهي تعض على شفتها السفلى، ثم سألته:

– ألم تعرف أنت عنها وعن ابنها؟ ألم تكن أنت تتصل بأخيك؟

– حاولت عدة مرات خلال السنوات السابقة ولكني فشلت. كانت رسائلي تعود إليَّ وعليها جملة (انتقل إلى سكن آخر غير معروف العنوان). كتبت له حين توفي والدي. لم أتسلم جوابه أو أي كلمة تعزية منه.

– ألم يكن «كروفورد» على اتصال بوالده؟ ضحك قبل أن يجيبها بالنفي ضحكة ساخرة مريرة. قالت:

– ولمَ لا؟

– الم تسمعي عن الكبرياء يا آنسة «فيليبس»؟ إن عائلة «كالدويل» لديها الفيض من الكبرياء. كان والدي وشقيقي «كروفورد» لديهما تخمة منها. قام شقيقي «كروفورد» في الماضي، بعمل أغضب والدي. فطلب إليه والدي مغادرة المنزل وعدم العودة إليه. وهذا ما نفذه «كروفورد» دون تردد. لم يحاول شقيقي ترطيب الجو بالكتابة إليه أو حتى إخباره بولادة حفيد له. علقت «ساندي» على قوله:

– أوه! كم هو حقود! كأنه يعيش في ظلمات القرون الوسطى. كانت «ساندي» تنتمي إلى عائلة متلاحمة الروابط. كل أعضائها على اتصال دائم ببعضهم البعض. علاقاتهم حميدة. لذلك وجدت تصرفات «كالدويل» وأولاده غير لائقة بل همجية ومخالفة لمبادئ المدنية الحضارية.

WWW.REWITY.COM

– أوافقك رأيك. لكن عائلة «كالدويل» عرفت بأعمالها السوداء واتصفت بما يخجل. وأظن أن «مرتا» لو عرفت عنا هذه الحقائق لما لجأت إلينا مع ابنها. لقد صعقت لما أخبرتها بأن والدي ترك لنا ديونًا متراكمة ما زلت أعمل كي أسددها حتى الآن.

– إذا كان والدك لم يترك وصية، فكيف ورثت وحدك الحصن والمنزل؟

– إن الأملاك يرثها الكبير من الأبناء في عرف أهل البلد. وأنا أكبر «كروفورد» شقيقي التوأم بخمس دقائق فقط.

– إذن. لم يرث «كروفورد» أي شيء؟

– نعم. ليس هناك أي شيء له، فقط بعض السيارات القديمة التي كان يستعملها أخي يوم كان في «دانكريغان». ثم ضحك ضحكة مبطنة وهو يكمل:

– عليك أن تري وجه ابنة خالك عندما رأيتها وأخبرتها بأن سقف المنزل يرشح في فصل الشتاء. لقد تعجبت كيف قبلت البقاء هنا في «دانكريغان» على الرغم من كل ما ذكرته، وبعد أن خبرت بنفسها، كم ينقص المنزل من أشياء أساسية ليصبح العيش فيه مريحًا بل مقبولاً.

جلست «ساندي» في مقعدها فاقدة الصواب، صامتة، مصعوقة مما سمعت. تذكرت فحوى الرسالة التي تسلمتها من «مرتا» تقول فيها: (من أجل سعادة «ديرميد» ابني سأعود إلى «اسكتلندا»، إلى «دانكريغان» لأجعله منزلاً لي وله. كان القصر منزل «كروفورد» في السابق وكانت أمنيته أن يتربى ابنه فيه، ليحظى بالرفاهية التي عاشها هو). كيف يمكن لـ «مرتا» البقاء هنا على الرغم من أن أحدًا لم يرحب ببقائها؟ كيف تفرض نفسها في ضيافة «ليماند» رغمًا عنه؟ هو يكافح ليجمع المال لسداد ديون والده. السقف يرشح ويحتاج إلى إصلاح وبالتالي إلى المال. أية رفاهية تنتظر ابنها؟! أفضل لـ «مرتا» الرجوع إلى جنوب «إنجلترا» حيث يمكنها أن تجد عملاً، كذلك يمكن لعمتها «جين» أن ترعى لها ابنها في أثناء غيابها في عملها. ثم قالت:

– سيد «كالدويل»، أشعر بأن عليّ أن أعتذر لك عن تصرفات ابنة خالي «مرتا». لا يجوز لها أن تفرض نفسها عليك وعلى ضيافتك. لكنها كتبت تقول إنك دعوتها للبقاء هنا بنفسك.

– نعم، أنا دعوتها، عليك ألا تنسى أن «ديرميد» هو ابن شقيقي. أحب أن أتعرف إليه. وقطع حديثه فجأة. وأحست «ساندي» بأنفاسه تهسهس بتنهيدة سخط بل غضب. وقالت:

– وهل توصلت إلى معرفته؟

– ليس كما يجب. قالت «ساندي» بصوت منخفض:

– فهمت الآن أسباب عدم ترحيبك بوصولي. ثم أردفت:

– سوف أرحل غدًا عائدة أدراجي، هذا إذا سمحت لي بالبقاء ليلة واحدة عندك في «دانكريغان». لم يجب، كان يفكر. أحست «ساندي» كأن قواها قد خارت. صمتت وأعادت نظرها إلى خارج السيارة ترقب من النافذة الظلام. اقتربت السيارة من بلدة صغيرة. أرتال السيارات تمر بهما وترسل أضواءً تشير إلى حافة الطريق. أبطأت السيارة ودلفت إلى مفرق لجهة الشمال. ومرّة ثانية أصبحت السيارة خارج البلدة. الأشجار هنا متلاصقة وملتفة. صف الأشجار على جانبي الطريق يشكل نفقًا تسير السيارات بداخله. انتهى صف الأشجار وخرجت السيارة مرّة أخرى إلى العراء، إلى الريف. ظهرت أشكال غريبة أمام السيارة. أبطأ «ليماند» سرعته، ركضت هذه الأشكال من أمامه بسرعة. سألته «ساندي»:

– ما هذه؟ فقال:

– إنها خراف. انزعج العجل الصغير القابع خلفها في الكيس، من صوت بوق السيارة. نخر وتنشق بصوت مسموع. شعرت «ساندي» بثقل في رأسها كأنها تخدرت. هزت رأسها ورفعته إلى أعلى حتى لا يغالبها النعاس، لكن على الرغم من ذلك شعرت بأن عينيها مثقلتان. أغلقتهما وغفت. أفاقت على صوت توقف محرك السيارة. فتحت عينيها لمحت المنزل وسط العتمة. كانت السيارة قد توقفت أمام بعض الدرجات المؤدية إلى فسحة المنزل. يرتكز المنزل فوق أعمدة حجرية. تنتهي فسحة الدار بقنطرة قديمة بداخلها باب خشبي مزخرف على شكل بيوت العنكبوت. فوق الباب ضوء صغير خافت. أطفأ «ليماند» ضوء سيارته ومد يده إلى المقعد الخلفي وأخرج سترته الصفراء. فتح بابه وخرج. لبس سترته ومشى إلى الصندوق الخلفي وأخرج منه حقيبة «ساندي». فتحت هي بابها بنفسها ورفعت قبة سترتها على رقبتها كي

تحمي شعرها من البلل. مشت إلى خلف السيارة وحملت بنفسها حقيبتها. أغلق «ليماند» صندوق السيارة. تكلم بلهجة آمرة اعتادها:

– ادخلي إلى المنزل. وأكمل:

– عليّ أن أحمل العجل إلى الزريبة. مشت «ساندي» مطيعة أوامره، تحمل حقيبتها. صعدت الدرجات وتمكنت رغم الإنارة الخفيفة من رؤية الباب الخارجي. ولاحظت فورًا قدم الباب وحاجته إلى دهان وتصليح. كان فوق الباب جرس قديم متدل. أمسكت به لتقرعه. فوجئت بمسّاكته تنقطع وتبقى في يدها قبل أن يسمع للجرس رنين. لم يكن الجرس موصولاً بأي سلك كهربائي وهو غير صالح أصلا لأي استعمال. حاولت «ساندي» إعادة المسّاكة إلى مكانها ولكنها لم تفلح؛ بل سقطت من يدها وأحدث سقوطها قرقعة عندما ارتطمت بالأرض. التقطت المسّاكة واحتارت ماذا ستفعل بها؟ سمعت وقع أقدام على الحصى. ثوان وظهر «ليماند». قفز الدرجات بخفة ونظر إلى يدها الممسكة بالجرس المقطوع. كانت «ساندي» تشرح له ما حصل وتمد يدها وبداخلها مسّاكة الجرس قائلة:

– حاولت قرع الجرس. ووقعت المسّاكة....

– أرجو ألا تكوني من هؤلاء الناس الذين يخربون كل ما يلمسون. كان «ليماند» يكلمها بلهجة ساخرة وقد مدّ يده وأخذ مسّاكة الجرس ووضعها مكانها وأكمل:

– لأن قصر «دانكريغان» كله يحتاج إلى من يمسك بأشيائه بلطف وانتباه وإلا يتفتت ويخرب. الباب لايقفل أبدًا. كان عليك أن تديري مسّاكة الباب الخارجية فينفتح. فتح لها الباب وأشار إليها بالدخول. دخلت إلى قاعة كبيرة تدلت من سقفها ثريا قديمة خافتة الأضواء، لأن بعض أقسامها كان خاليًا من اللمبات، وسط القاعة سجادة هندية خيوطها بالية ولونها باهت. كانت تغطي قسمًا مربعًا من الأرضية الخشبية. توجد سلالم تؤدي إلى الطابق الأول إلى يمين القاعة. لم تكن السلالم مغطاة بأي سجاد. في طرف القاعة بعض الكراسي الأثرية ويوجد على الحيطان بعض الصور الزيتية في إطارات فخمة مطلية بالذهب. حيطان القاعة لونها أصفر باهت. فتح باب إلى اليمين وخرجت منه امرأة وخرج معها من الغرفة صوت تليفزيون مسموع. تمنت

«ساندي» أن تكون تلك المرأة ابنة خالها «مرتا» لكن أملها خاب، لأن المرأة أطول وأكبر سنًا من «مرتا». قالت المرأة:

– سمعت الباب ينفتح، هل وجدت الفتاة القادمة من «إنجلترا» يا«ليماند»؟

– نعم، هذه «ساندي فيليبس». قالت المرأة وهي تبتسم:

– أهلا وسهلاً في «دانكريغان». كانت ترتدي تنورة من قماش التويد الصوفي وفوقها كنزة صوفية. شعرها الأسود يخالطه البياض مما أعطاه لونه الرمادي، تعقصه بضفيرة حول رأسها.

– هذه «نان كوري» وهي مدبرة المنزل منذ عشرين سنة.

– تشرفنا.

– أين «مرتا»؟

– ذهبت إلى نادي «اليخوت» مع «جوني».

– وأين الولد؟ قالت «نان» وهي تبتسم:

– نائم بعد أن قصصت عليه القصص العديدة. ثم التفتت إلى «ساندي» وقالت:

– أنت متعبة جدًا بعد هذه الرحلة الطويلة. كذلك لابد من أن الجوع قد استبد بك. سأضع إبريق الماء على النار من أجل الشاي. ضعي حقيبتك في أسفل السلالم وسنحملها إلى غرفتك في الطابق العلوي بعد العشاء. إلى اليسار ستجدين حمّامًا صغيرًا. اغسلي يديك واتبعيني إلى المطبخ من أجل الطعام. نحن لا نستعمل غرفة الطعام في هذه الأيام إلا نادرًا.

سرت «ساندي» بترحيب «نان» بها. غسلت يديها ومضت لتوها إلى المطبخ عبر ممر إلى يمين القاعة. جلست إلى طاولة كبيرة يغطيها شرشف زاهي الألوان، نظيف. أكلت وجبتها التي وضعت أمامها بنهم دون أن تنبس ببنت شفة. كان يجلس معها «ليماند» يأكل وجبته التي أمامه دون كلام.

المطبخ مربع وواسع وله أرض حجرية. كان لهيب نار خفيف يخرج من الموقد القديم، منظر بديع في ليلة شديدة المطر. وألسنة اللهب تنعكس على أدوات المطبخ النحاسية المعلقة على الحيطان. خزائنه الخشبية دُهنت بلون أصفر في محاولة لتجميله. زهور ونباتات عديدة من النوع الذي يعيش داخل المنازل هنا وهناك فوق الرفوف أو على ظهور الخزائن. كانت «نان» تقوم

على خدمتهما في أثناء الطعام. تصب الشاي الغامق من إبريق فخار وهي تسأل «ليماند» أسئلة تتعلق برحلته من وإلى «ديمفريز» وتسمع إجاباته، وترقب «ساندي» بطرف عينيها. شعرت «ساندي» بنظرات «نان» الفاحصة لها، كما لاحظت الشبه الكبير بينها وبين «ليماند». الاثنان لهما شعر أسود وعينان سوداوان. بشرتهما مائلة إلى الاسمرار وتقاطيع وجهيهما غريبة عن «اسكتلندا». ربما بعض الجدود قدموا من الشرق الأوسط وربما تكون «نان» والدته. قالت «نان»، كأنها قرأت ما كانت تفكر فيه «ساندي».

– كلا، أنا لست والدة «ليماند»، ولكنني ابنة عم والده «كافن كالدويل» وجدودنا واحدة. والدتي كانت شقيقة والدة «كافن». استغربت «ساندي» قائلة:

– أوه! ونقلت بصرها بين «ليماند» و «نان» بسرعة وسألتها:

– كيف عرفت ما كنت أفكر فيه؟ أجابتها «نان» بصوت جهوري واضح:

– أنت صغيرة، وعيناك صافيتان تعكسان ما بداخلك. كانت عيناها السوداوان ترسلان بريقًا ساحرًا. ثم أكملت:

– لم تتعلمي بعد يا صغيرتي، كيف تخفين ما بداخلك. أنت واضحة كالنهار وهذا ما يجعلك طيبة ومحبوبة، مع أنه يشكل خطرًا عليك.

– هل عدت إلى تكهناتك؟ سألها «ليماند» ونظر إلى «ساندي» وخاطبها:

– تزوج أحد أبناء «كالدويل»، قديمًا، غجرية صغيرة، كانت ابنة ملك الغجر في هذه الضواحي. تحمل «نان» في عروقها دما غجريًا بالوراثة. وتتكهن أن هذه القطرات الغجرية تمكنها من قراءة الأفكار والتنبؤ بالمستقبل. لا تأخذي ما تقوله لك على محمل الجد فهو لا يحمل من الحقيقة قدر ذرة ملح. أجابته «نان» وهي تبتسم بحنان:

– لا تضحك ولا تسخر مما ورثناه أنا وأنت عن جدودنا. كانت «ساندي» تفكر في أن الدم الغجري بينهما يمكن أن يكون السبب في سواد الشعر والعينين عندهما. علم أجناس البشر وأصوله يثبت ذلك إذن نظريتها صحيحة بالنسبة إلى عائلة «كالدويل» من أن أحد جدودهم قدم من الشرق الأوسط. إن كلمة غجري تشتق من كلمة مصري. وهي كلمة أعطيت لجماعة من الرحّل قدموا إلى «إنجلترا» في القرن السادس عشر. وربما يكون الشعر الأسود والعينان

السوداوان وراثة عن جماعة استوطنت «اسكتلندا» في قديم الزمان تعرف بالـ «بكتس»: وهم جماعة غريبة لا يعرف عنهم إلا القليل تاريخيًا. وكانت «ساندي» قد سرحت في خلال رحلة عبر التاريخ، كعادتها، فلم تسمع ما دار من حوار بين «ليماند» و «نان». وأجفلت قليلاً حين أبعد «ليماند» كرسيه ليقوم، بعد أن أكمل طعامه. قال يخاطب «نان» وهو واقف:

– هل عندك مكان لتنام فيه «ساندي»؟

– نعم، في الغرفة المجاورة لجناح الطفل.

– أظنك ستقولين لي إنك عرفت أنها قادمة إلى هنا كي تساعد «مرتا» على رعاية الطفل الصغير، مع أن «مرتا» أهملت كليًا أن تخبرني بأنها دعت ابنة عمتها لتبقى معنا لنهاية الصيف. كان «ليماند» يخاطب «نان» بجفاء، وقد رفع حاجبيه وانفرجت أساريره عن ابتسامة ساخرة. اتسعت عينا «نان» من المفاجأة وجال نظرها بسرعة بين «ساندي» و «ليماند» وأجابت:

– كلا، كلا، لم أعرف. فقط لأنني ظننت أن وجودها قرب غرفة ابنة خالها مطمئن لها. صمتت «نان» وبدا على وجهها هم كبير. ثم خاطبته بسرعة:

– لن تعيدها إلى «إنجلترا»؟ لن تحرمها ضيافتك؛ لأن «مرتا» لم تصرح لك بحقيقة رغبتها؟

– لن يعيدني إلى بلدي، بل أنا التي اخترت العودة بنفسي. سأعود غدًا بعد أن أرى ابنة خالي. سأعود بعد أن أعرف منها حقيقة ما حصل. دافعت «ساندي» عن كرامتها بصوت متهدج وأكملت:

– متى ترحل الحافلة من «كيركتون» إلى «ديمفريز» غدًا؟ وران صمت لفترة بين الثلاثة. حدق «ليماند» لأول مرة إلى وجه «ساندي». إنها المرّة الأولى التي يوجه إليها نظره ويرى وجهها بوضوح. مرت فترة وجيزة وهو يتفحصها بعينيه السوداوين. أحست «ساندي» بثقل نظراته فوق جسمها كله. تسربت حمرة الخجل إلى وجهها الشديد البياض. كان «ليماند» يفكر في الحل السريع لهذه المشكلة الجديدة. وبسرعة كمن توصل إلى قرار مهمٍ قال:

– لا لزوم لذهابك بالحافلة غدًا. يمكنك البقاء أسبوعين فقط تساعدين فيها «مرتا» على رعاية الصبي. تذكري دائمًا أنني أنا مضيفك وأنا دعوتك للبقاء في منزلي. كانت لهجته آمرة، وهذا جزء من طبيعته، ولكن وجهه الصارم

www.rewity.com

لم يكن خاليًا من الطرافة وعدم الاكتراث والبرودة كالسابق... قالت «ساندي» ببطء وانكسار:

– شكرًا. تحيرت هل عليها أن تنحني له إجلالاً لكرمه. لم يجبها «ليماند» على شكرها. بل هز رأسه ودار خارجًا من المطبخ. نظرت «ساندي» إلى «نان» نظرة استغراب. كانت «نان» تخفي ضحكة واضحة على وجهها وهي تصب المزيد من الشاي لنفسها. ثم قالت:

– يستطيع «ليماند» أن يكون متعجرفًا حين يشاء. كنت أتساءل متى يعود لطبيعته الآمرة من جديد منذ حضرت ابنة خالك «مرتا» إلى هنا. وجلبت معها خبر موت «كروفورد» بقي «ليماند» منطويًا على نفسه، هادئًا وحزينًا. لم يكن أحد يستطيع التكلم معه. الأنباء المحزنة قلبت كيانه وغرق في حزن شديد على أخيه. بعد ذلك مر بفترة شك في صحة زواج أخيه بابنة خالك! قاطعتها «ساندي»:

– أوه! لم الشك؟

– لم يكن لديه علم بزواج أخيه وظن أن «مرتا» محتالة ومزيفة. ودافعت «ساندي» عن ابنة خالها قائلة:

– لا يمكن لـ «مرتا» أن تفعل ذلك. أنا واثقة بصدقها. كانت زوجة «كروفورد» بالتأكيد.

– تأكد لـ «ليماند» صدق «مرتا» بعد أن رأى وثيقة زواجها. في البداية لم يصدقها.

– كم هو كثير الشك!

– إنه ليس شكا بقدر ما هو حذر. إن «ليماند» يعرف أخاه أشدّ المعرفة، كما تعرفين أنت ابنة خالك. كان من المحتمل أن يعيش «كروفورد» مع «مرتا» دون زواج وبالتالي يكون الصبي ولدًا غير شرعي.

– أفهم الآن تفكيره وسبب حذره. سرّت من شرح «نان» لهذه الأمور الدقيقة. سألتها «نان» تستوضحها المزيد من المعلومات؛ لأن ذلك من صلب اختصاص عملها في منزل «دانكريغان» وأسراره. قائلة:

– هل تعرفين «كروفورد»؟ وأكملت قائلة:

– هل حضرت زواجهما؟

– كلا. لم أكن موجودة يوم تزوجا. كان الزواج في «باريس» حيث كانت تعمل «مرتا» عارضة أزياء لأحد بيوت الأزياء هناك. ذات ليلة التقت بـ«كروفورد» في حفلة وتزوجا بعد اللقاء بثلاثة أيام. أومأت «نان» برأسها موافقة قائلة:

– نعم. هذا ما قالته لنا «مرتا». كان زواجهما رومانسيًا! ألا تظنين ذلك؟ أجابت «ساندي»:

– أوافقك رأيك. وأردفت قائلة لها:

– ولم نرها بعد ذلك في «إنجلترا» إلا يوم عادت مع «ديرميد» ابنها في الربيع الماضي بعد الحادث المشؤوم. كانا ينتقلان كثيرًا.

– نعم. كان «كروفورد» يحب التنقل ويكره الاستقرار. ترك «دانكريغان» بعد أن غادر «ليماند» المنزل في «دانكريغان». تنهدت «نان» وسرحت عبر ذكرياتها. قامت «ساندي» تجمع الصحون الوسخة. كان عليها أن تبدي رغبتها في المعاونة في أعمال المنزل على الرغم من شدة تعبها. اعترضتها «نان» بلطف قائلة:

– اتركي هذه الصحون، لا عليك.

– لكني أرغب في مساعدتك فترة إقامتي هنا. وتمتمت قائلة:

– لو أن «مرتا» استأذنت السيد «كالدويل» قبل دعوتي لتمضية الصيف هنا؟ ألا يكفيه أن يعيلها هي وابنها؟ هو الآن مثقل أيضًا بضيافتي. كانت تجمع بقية الصحون وتضعها في المغسلة ثم قالت:

– عليّ أن أعمل لقاء سكني ومعيشتي هنا... قالت «نان» وهي تضحك:

– لا تهتمي، أرجو ألا يكون «ليماند» قد أثقلك بشرح أعبائه المالية.

– نعم. ذكر لي أن عليه ديونًا متراكمة ورثها عن والده وهو يعمل لسدادها. كذلك ذكر لي أن السقف يرشح في فصل الشتاء ويحتاج إلى ترميم. ثم لاحظت بنفسي أنه يحتاج إلى سيارة جديدة بدلاً من سيارته المكسرة والمحطمة التي يستعملها و... كانت «ساندي» تتكلم وهي مهمومة فتحت حنفية الماء الساخن وبدأت عملية جلي الصحون المتراكمة أمامها.

– كل ذلك صحيح. أجابت «نان» وهي تحمل إلى «ساندي» بقية الصحون الوسخة لتنظفها:

– لقد تعب كثيرًا في خلال السنتين الماضيتين حتى تمكن من إيفاء جميع ديون «كافن». لكنه انتهى من هذه الأزمة، تقريبًا.

– سيدة «كوري»....

– نادني «نان». الكل يناديني بهذا الاسم.

– إذن، هل لديك فكرة لماذا لم تستأذنه «مرتا» قبل أن تدعوني؟

– لأنها تخاف منه قليلاً.

– هذا ما قالته لي أمي وهي تقرأ بين السطور في رسالة «مرتا» لي، لكن لماذا تخافه؟

– أعتقد لشدّة الشبه بينه وبين أخيه في المظهر الخارجي ويختلف معه كثيرًا في الطباع والأخلاق، إنه غامض وهذا يخيفها، ألا توافقين؟

– الغموض يخيف لفترة قصيرة. أجابتها «ساندي» ثم سألتها:

– ماذا تعرفين عن «كروفورد»؟

– كان يخالف في طباعه كليًا شقيقه «ليماند». كان كثير الحركة، طائشًا، متكبرًا، سريع الغضب، شديد الحساسية، ويستولي على محبتك لدقيقة ويثير غضبك بطيشه السريع في دقيقة ثانية. كان الابن المفضل لوالده «كافن». لكنهما تشاجرا آخر المطاف. تنهدت «نان» وهي تعيد هذه الذكريات وأكملت قائلة:

– لو كتب «كروفورد» لوالده يعلمه بولادة حفيده لكان كل شيء هنا قد تغير وربما رأب الصدع الذي اتسع بينهما مع مرور الأيام. تمنت «ساندي» لو تعرف سبب شجارهما، ولكنها أحست بأن «نان» انزعجت من إثارة هذه الذكريات الأليمة. أكملت «ساندي» جلي الصحون دون حديث. وعندما انتهت منها همت بتنشيفها، لكن «نان» أصرت عليها بالتوقف قائلة:

– لقد عملت أكثر مما يجب. أرى أنك منهوكة القوى من شدّة التعب. سأريك غرفتك لتنامي..

– أود رؤية ابنة خالي قبل أن أنام.

– سترينها في الصباح الباكر. كل شيء يكون في الصباح على ما يرام. الشمس المشرقة فوق الرمال. الطيور المزقزقة. وسأخبر «مرتا» بوصولك حين تحضر من سهرتها. تعالي الآن معي إلى الطابق العلوي. اقتنعت «ساندي». لحقت

بها إلى الطابق الثاني. جناح الطفل يقع في أقصى الممر بعد ثلاث غرف نوم. واحدة ليلعب فيها الصبي وواحدة لـ «مرتا» وقربها غرفة «ساندي». قالت «نان» وهي تشير إلى باب مفتوح يخرج منه نور ضئيل:

– هنا الحمّام. كان «ديرميد» يخاف من العتمة وقرقعة أبواب القصر وصريرها، أبقيت له هذا الضوء في الليل، ستنامين في هذه الغرفة القريبة من غرفته، هي غرفة صغيرة ولكنها تطل على الحصن القديم ومصب النهر، هل هناك أي سؤال قبل أن أتركك؟

– نعم، لديّ سؤالان من فضلك، إذا لم أعرف إجابتهما لن أنام.

– اسألي فورًا. أنا أفهمك.

– أولاً: من هو «جوني»؟

– هو ابني الوحيد. شاب مهذب ويصغرك بقليل. عمره واحد وعشرون سنة. عاش كل حياته هنا. حضرتُ إلى القصر بعد ولادته لنعيش ونستقر هنا. لم أكن أملك أي شيء. قتل والد «جوني» في حادث. صدمه جرار في المزرعة ومر فوقه. كنّا نستأجر من «كافن» مزرعة صغيرة. سيعمل «جوني» في خدمة «ليماند» فترة الصيف فقط. هو مثلك طالب جامعي. لديه بعض الأصدقاء في نادي «اليخوت». دعا «مرتا» الليلة لصاحبته ليمرحا قليلاً. اسألي سؤالك الثاني.

– ماذا يعمل السيد «كالدويل»؟

– هو من الملاّك مع أنه لا يملك الكثير من الأراضي، باع عدّة مزارع كانت تؤجر لمزارعين يعملون عنده. كذلك باع الأراضي الواقعة في الناحية الثانية من البناء، باع بعض أملاكه ليسدد بثمنها بعض الدين. كذلك استعمل قسمًا آخر من المال للبدء في استصلاح أراضيه الزراعية.

– أقصد ماذا يفعل للأرض لتصبح منتجة وتعطيه المال؟ كانت «ساندي» تستوضحها في محاولة لمشاركة «ليماند» همومه المالية. وأكبرها في نظرها أعباء إعالة «مرتا» وابنها. أجابتها «نان» وهي تبتسم ابتسامة عذبة حنونة:

– لديه قطيع من الأبقار والخراف وبعض الحيوانات اللبونة الأخرى. لديه فراخ. والآن بدأ بتربية الأرانب.

– إنه مزارع!

– نعم، هذا ما يسمى. كان والده «كافن» يفضله في الجيش مثله. لكن «ليماند» كان يرغب في تربية الحيوانات المختلفة. إدارة المزرعة همه. كان دائم الخلاف مع والده بسبب إدارة الأملاك مما اضطر «ليماند» إلى ترك «دانكريغان»، تنقل في بلدان مختلفة في «بريطانيا» يعمل في المزارع، هل ترغبين في المزيد من الأسئلة يا عزيزتي؟

– شكرًا، هذا يفسر الآن وجود العجل الصغير في المقعد الخلفي في السيارة. سرت «ساندي» لأن بعض الغموض بدأ ينجلي حولها.

– عمتِ مساء. سأتركك لتنامي وتصبحين على خير. كان الفراش قاسيًا وضيقًا ولكنه نظيف. رائحة الشراشف ذكية. نامت «ساندي» فورًا. حلمت قبيل انبلاج الضوء بأنها سجينة في قبو الحصن. حضر لنجدتها من سجنها فارس يمتطي حصانًا أسود ويلبس درعًا من القرون الوسطى. كانت أوسمة الشرف تزين صدره وفي خوذته ريشة زاهية. ترجل عن حصانه ومشى شاهرًا سيفه بيمينه. ولما وصل إليها رفع قناعه عن وجهه. نظرت إليه لتتعرف إلى مخلصها. وجدت نفسها تحدق إلى عيني «ليماند كالدويل» السوداوين.

– 2 –

استفاقت «ساندي» مذعورة من حلمها، لتجد نفسها وحيدة في غرفة نوم صغيرة. هذا هو اليوم الأول لها في «دانكريغان». كانت أشعة الشمس تدخل الغرفة من فتحة صغيرة في الستارة المخملية الخضراء العتيقة، التي تغطي قسمًا من النافذة لا يتعدى إطارها. سمعت «ساندي» زقزقة عصفور صغير يغرد. مع صوت العصفور أصوات أخرى مختلطة. لطرقة حديدية تغل الحديد وأصوات رجال يتكلمون. صوت محرك سيارة بدأ يدور. وشاحنة أو جرار ثقيل يسير فوق الأرض.

قفزت «ساندي» من فراشها ونظرت من النافذة بعد أن فتحت الستارة. كانت غرفتها تقع في مؤخرة المنزل وتشرف على ساحة خلفية تحيط بها أبنية زراعية بيضاء. كانت شاحنة لنقل الحليب (اللبن) تحاول الخروج من الساحة إلى الطريق العام. يقف بالقرب من الشاحنة شاب يلبس بنطلون جينز

وقميصًا دون أكمام وفوقه كنزة صوفية خفيفة قبتها مفتوحة على شكل سبعة، وينتعل حذاءً مطاطيًا، يراقب خروج شاحنة الحليب (اللبن) بحمولتها. ولما خرجت الشاحنة وضع أصابعه في فمه وصفّر. وعلى الفور ظهر كلب لونه أسود يخالطه بياض. كلّمه الشاب ومشى وإياه إلى بناية مجاورة، دخلاها. وبعد ثوانٍ قليلة خرج من البناية قطيع من الأبقار والماشية، بعضها أسود وأبيض، تمشي مترنحة ببطء. نظرت «ساندي» إلى البعيد خلف الساحة. رأت حقلًا أخضر فسيحًا وفي وسطه حصن عالٍ، حجارته رمادية تلمع تحت أشعة الشمس. الحصن موجود فوق هضبة من العشب الأخضر وتجري بجانبه المياه الزرقاء تتراقص مع أشعة الشمس حيث يصب النهر. الحصن مربع وفيه نوافذ ضيقة مشقوقة طولًا. وجود الحصن ينبئ عن سلطة وعظمة وقوة عائلة «كالدويل» في الماضي. شعور مثير انتاب «ساندي» وهي تراقب الحصن من بعيد. هو الشعور نفسه الذي يخالجها كلما وجدت نفسها في مكان أثري تاريخي. سمعت «ساندي» صفيرًا مرّة ثانية، في الباحة... التفتت إلى مصدر الصفير. كان الشاب قد خرج من الزريبة ينظر إليها، ووجهه مضيئًا بابتسامة عريضة. وبعد أن استرعى انتباهها إليه، بادرها محييًا إياها وهو يلوح لها بيده. ردّت له تحيته بأن لوحت له بيدها أيضًا، وتراجعت إلى داخل غرفتها. لبست ثيابها بسرعة. وما إن انتهت حتى سمعت طرقًا خفيفًا على بابها. فتحت الباب. كانت «نان» تحمل لها فنجانًا من الشاي. وكان «ديرميد» الصغير ذو العامين، ممسكًا بثوبها الطويل القديم. كان شعرها جديلة طويلة على كتفها. وما إن لمحت «ساندي» «ديرميد» حتى أخفى وجهه خلف «نان».

– جلبت لك فنجانًا من الشاي، هل نمت جيدًا؟

– نعم، نمت فورًا، شكرًا لإحضارك فنجان الشاي. أرجو ألا تفعلي ذلك كل يوم. أنا معتادة أن أستيقظ باكرًا. قالت «ساندي» لما رأت الصغير:

– أهلا «ديرميد» هل تذكرني؟ نظر الصغير إليها وهز رأسه إيجابًا. نظرت «ساندي» إلى شعره الأسود وقالت في نفسها: «لابد من أنه ورث سواد شعره عن والده وعائلة «كالدويل». أما عيناه الذهبيتان الواسعتان فقد ورثهما عن «مرتا». عيناه مثل عيني الهرة. لا يرف له جفن إذا حدق».

www.rewity.com

– سآخذ «ديرميد» إلى المطبخ من أجل فطوره. «مرتا» لا تزال نائمة. لقد عادت البارحة مع «جوني» بعد منتصف الليل.

– لكن «جوني» استفاق باكرًا.

– نعم، لقد أيقظه «ليماند» ليرعى الأبقار. هذا عمله في هذا الصيف. عليه رعاية البقر وحلبها وشحن حليبها (لبنها) للسوق كل صباح. هل تحبين العصيدة مع الزبدة، ثم اللحم مع البيض للفطور؟

– هذا كثير!

– سأطبخ من أجل «جوني» ويمكنك مشاركته فطوره. «ليماند» تناول فطوره باكرًا وذهب إلى «كيركاد برايت» سيغيب اليوم بطوله. لديه اجتماع مع أعضاء المجلس البلدي. أنهت «نان» تفصيلاتها ولمست شعر «ديرميد» وهي تقول له:

– تعال، اتبعني. سنتناول فطور الصباح. نزلت «ساندي» إلى المطبخ وكان قد سبقها «جوني» إلى طاولة الطعام وبدأ يتناول فطوره، وكذلك كان «ديرميد» يجلس على كرسي خشبي عالٍ قديم، وقد وضعت «نان» فوطة حول عنقه، يحاول أن يطعم نفسه بجهد جهيد. قالت لها «نان» وهي تضع أمامها صحن العصيدة:

– اجلسي يا «ساندي» هذا ابني «جوني»، هذه «ساندي» ابنة عمة «مرتا» يا بني. قال الشاب وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

– أهلا. شعره أسود قصير وقد انسدلت غرة فوق جبينه من الأمام. تكاوينات جسمه كبيرة ولا يشبه والدته «نان» وقال لها:

– أهلاً بك في «دانكريغان». الظاهر أن قدومك خير علينا فقد جلبت معك الطقس الجيد. قالت لي «مرتا» إنك تخرجت لتوك في الجامعة في علم التاريخ. ماذا ستفعلين بعد التخرج؟ هل ستدرّسين في مدرسة؟

– كلا، لن أعمل. أحاول أن أتابع دراستي الجامعية للحصول على درجة علمية أخرى. ماذا تدرس أنت يا «جوني»؟ كان حديثها معه سهلاً ومنفتحًا. شخصيته لينة لا غموض أو قساوة فيها. أجابها بلباقة:

– أدرس علم الأحراش. سأتخرج بعد سنة في الجامعة، أحب أن أتجول في العالم قليلاً وأعمل في مدن مختلفة. كما فعل «ليماند»؛ لأكتسب خبرة

ضرورية قبل أن أستقر. ستحبين هذا المكان إذا كنت تهتمين بعلم التاريخ. توجد آثار قديمة عديدة هنا. لا تمشين خطوتين إلاّ وتقعين على آثار أو بقايا آثار.

– رأيت الحصن هذا الصباح وأظن أنه بُني في القرن الرابع عشر. هل تعلم متى أمتلك آل «كالدويل» هذا المكان؟ أجابها وهو يضحك:

– لا، لا تسأليني. أنا لا أعرف أكثر مما دار من منتصف القرن العشرين فقط. ثم نظر إلى والدته وقال:

– هل تعرفين يا أماه، متى حضر مؤسس عائلة «كالدويل» إلى هنا؟ وضع صحنه بعيدًا وتناول صحن البيض واللحم. أجابت «نان»:

– قال لي «كافن» إن العائلة تنحدر من صلب فارس نورماندي يدعى «سيرغاي». قدم لمساعدة الملك «داود» الأول من أجل تثبيت حكمه في «اسكتلندا». علّقت «ساندي» قائلة:

– كان ذلك حوالي القرن الثاني عشر. كانت مسرورة من أن نظريتها الأولى برهنت على صحتها. أجابت «نان»:

– نعم، هذا صحيح ثم أكملت قائلة:

– كان «كافن» يقول إنه وجد عدّة أبنية في الطرف الآخر، ويعتقد أن هناك مستوطنين قبل آل «كالدويل». وقد بدأ حفريات عدّة في الأرض للاستكشاف والتنقيب. صرخت «ساندي» بحماس قائلة:

– تنقيب عن الآثار!

– نعم، كان يجرب بيديه من وقت لآخر يحاول العثور على جواهر قديمة أو أدوات فخارية مما يساعده على معرفة تاريخ المستوطنين الأوائل هنا. حاول «كافن» أن يكتب تاريخ حصن «دانكريغان». سألتها «ساندي» بإلحاح:

– ماذا حل بمخطوطاته؟ هل نشرها؟

– كلا، مات قبل إنجازها. هي موجودة في المكتبة. صفحات وصفحات من الكتابة. سألتها «ساندي»:

– هل يمكنني قراءتها؟ ثم نظرت إلى «جوني»؛ لأن «نان» استدارت إلى جانب الموقد. رفع «جوني» كتفيه إشارة إلى أنه لا يعرف وقال:

– عليك استئذان الرئيس هنا، هو الفارس الحالي في «دانكريغان». المكتبة في

حالة كبيرة من الفوضى. كان الرجل العجوز «كافن» لا يسمح لأحد بدخولها، ولكنني آمل ألا يكون علم التاريخ هو همّك الوحيد؟ هل قمت بأية رحلة بحرية في السابق؟

– نعم، نملك أنا وأخي زورق تجديف صغيرًا نستعمله في عطلة نهاية الأسبوع. نجوب فيه الشاطئ الجنوبي بحرًا.

– إذن، ربما تبحرين هنا أيضًا. لي صديق يدعى «رون كارسن». اشترى مؤخرًا مركبًا شراعيًا ويأمل أن يستعمله في السباق، ما رأيك في مشاركتنا رحلتنا هذا الأحد؟

– أحب أن أشارككما، ولكني لا أعرف برنامج عملي بعد، لقد حضرت إلى هنا لرعاية «ديرميد» من وقت لآخر، ولست في عطلة صيفية للراحة والاستجمام. ودُهش «جوني» كما دُهش «ليماند» من قبل، وتعجب أن تكون «مرتا» تحتاج إلى من يساعدها على رعاية «ديرميد». ثم قال:

– امرأة عظيمة هي «مرتا»، أليس كذلك؟ لا وقت لديها لتفاهة تحرير وحقوق المرأة أو مساواتها بالرجل. همّها أن تحافظ على جمالها وتلفت الأنظار إليها وتظهرها بمظهر لائق وفاتن. هي صعبة المنال، ثم أردف يسألها:

– كم ستمكثين هنا؟

– لا أعرف بعد، ذلك يتوقف... لم تعرف «ساندي» بماذا تنادي «ليماند». إذا كان فارسًا حقيقيًا فعليها مناداته بسير «ليماند»...

– يتوقف على الريّس أكمل «جوني» عنها جملتها وقد اتسعت ابتسامته.

– هل هو فارس حقًا؟

– أفضل من فارس، لقد ورث لقب «بارون» من جدوده. شرحت «نان» لها وهي تضع أمامها صحن البيض مع اللحم وأكملت حديثها:

– هل ترغب في المزيد من الشاي يا «جوني»؟

– كلا، شكرًا يا أماه، عليّ أن أعود إلى عملي. أحد الجرارات يتعبني، ولقد وعدت «ليماند» بتصليحه. أنهت «ساندي» فطورها وساعدت «ديرميد» على تناول طعامه. ثم حملت الصحون الوسخة إلى المغسلة من أجل جليها لكن «نان» رفضت أن تدعها تنظفها قائلة:

– كلا، كلا يا صغيرتي، اتركي الصغير معي واحملي هذه الصينية إلى

«مرتا» في غرفتها. سنفاجئها بمفاجأة صغيرة. ستجدينها في غرفتها مقابل غرفة الصغير. سلّمي عليها وثرثري وإياها قليلاً. ظهر المر رثا باليًا أكثر من السابق في وضح النهار. تسلقت «ساندي» السلالم العارية من السجاد وأجالت بصرها في إطارات الصور الزيتية المطلية بالذهب المعلقة على الجدران. كلها رجال سود العيون والشعر. كان من بين هذه الصور صورة فارس «دانكريغان» يرتدي لباسًا عسكريًا لفارس في الجيش. كتب اسمه في أسفل صورته وعليها تحديد وظيفته في الجيش، فارس «دانكريغان». دخلت غرفة «مرتا» بلطف. مشت إلى طاولة قرب السرير ووضعت عليها الصينية. حاولت فتح الستائر عن النوافذ. كانت غرفة «مرتا» تطل على المدخل الرئيسي للمنزل. على جانبي الممر المؤدي إلى المنزل، عشب أخضر ترعى البقرات السود والبيض منه مسرورة راضية. بعضها يتمشى في الممر دون حرج. وخلف الممر منحدر تغطيه شجيرات شوكية صغيرة ملتفة، وقربها بعض شجرات الحور الطويلة وقد مالت باتجاه الرياح. السماء صافية وزرقتها لامعة.

– «ساندي»، وصلت، كم أنا سعيدة برؤيتك! استيقظت «مرتا» لتوها. جلست في سرير نحاسي قديم ترتدي غلالة نوم شفافة، من اللون الأخضر الفاتح يكشف عن أحد كتفيها. جسمها البض ووجهها المستطيل الجميل يتوّجه شعرها الأحمر الذهبي يتموج بثورة حول عنقها الفاتن. رفعت يديها لاستقبال «ساندي» بالعناق وعلى الفور مشت «ساندي» نحوها وجلست إلى حافة السرير لتعانقها.

– جلبت لك فطورك. أسرعي في أكله قبل أن يبرد. قالت لها «ساندي» بعد أن انتهت من العناق والترحيب. حملت الصينية ووضعتها أمامها.

– شكرًا، أنت حملت فطوري!

– هي فكرة «نان».

– وهل «ديرميد» معها؟

– نعم، وعدت أن ترعاه في غيبتي عندك.

– حسنًا فعلت. يمكنني الآن التحدث إليك حديثًا من القلب للقلب. وجودك معنا سيكون مفيدًا. كم تمنيت أن أجد قريبًا لي أتكلم معه بصراحة. «نان» عطوفة وحنونة ولكنها غريبة عني. هي لا تتحمل مني أي انتقاد أبديه هنا

بخصوص المنزل أو عائلة آل «كالدويل». سكتت «مرتا» لتأكل بعض الخبز المحمص ثم أكملت قائلة:

– ما رأيك في المنزل يا «ساندي»؟ ألا تجدين طراز مفروشاته القديمة أثرية عفنة وبالية. أنواره خافتة. كل شيء هنا على الطراز القوطي (نشأ هذا الطراز في «فرنسا» وانتشر في «أوروبا الغربية» في منتصف القرن الثاني عشر إلى السادس عشر). كل شيء في هذا المنزل يشير إلى مظاهر العظمة والغطرسة للسيد الأعلى، والحاكم المطلق.

– تقصدين سير «ليماند»؟!

– نعم، هو من أعني. أرجوك لا تناديه سير يا «ساندي»، هو صحيح متغطرس ومتكبر وغامض ولكنه يكره الشكليات. اعتاد أن يعيش على طبيعته عندما سكن في «كندا»، وغيرها من البلاد التي عمل فيها. كيف كان مشوار الطريق معه من «ديمغريز»؟

– ليس كما يجب يا «مرتا»، ارتبكت جدًا لما عرفت أنه لا يعلم أي شيء عن موضوع حضوري للعمل هنا فترة الصيف. كان عليك استئذانه قبل دعوتي. حدقت «مرتا» إلى السقف، عيناها الواسعتان جامدتان كعيني قطة. قالت:

– كيف عرفت أنني لم أسأله؟

– شعرت ببرود في استقبالي ونفور من قدومي. واجهته بالحقيقة وسألته عمّا إذا كان يسمح لي بالبقاء فترة الصيف.

– أوه! يا «ساندي»، كيف تخذلينني هكذا؟!

– أنا أخذلك؟ أنا لم أخذلك بل أنت التي وضعتني في مأزق حرج. كيف لي أن أعرف أنك لم تستأذنيه؟ أو لم تخبريه حتى بالأمر؟ ما علينا الآن. أخبريني يا «مرتا»، لماذا لم تسأليه؟ هذه ليست من صفاتك ولا طباعك التي تربيت عليها؟

– صحيح أنني لم أسأله، وذلك لأنني كنت أخاف من أن يرفض لي طلبي. قلت في نفسي، عندما تحضرين إلى هنا سيذعن للأمر الواقع ويقبل أن تبقي. وهذا ما حدث معي أيضا عندما حضرت إلى بابه مع ابني. سمح لي بالبقاء لفترة قصيرة فقط.. وهأنا ما زلت هنا إلى الآن، وسأبقى حتى أحصل منه على كل ما أبتغي. وصمتت «ساندي» بعد أن سمعت خطة ابنة

خالها وقرارها الشديد. كانت تراقبها وهي تأكل فطورها، قالت «ساندي» في نفسها: «إن «مرتا» طفلة مدللة اعتادت أن تحصل على كل رغباتها. فطورها تتناوله في الفراش، الكل في خدمتها... هذه الفئة من الناس تعيش لنفسها وتحصل في النهاية على كل رغباتها في الحياة ولو على حساب الآخرين».

ثم قالت لها:

– ألست يا «مرتا» طفيلية تمتصين تعب شقيق زوجك وتعيشين عالة عليه أنت وابنك؟ قالت «مرتا» بلهجة آمرة:

– خذي الصينية، ضعيها هناك يا حبيبتي. وأكملت قائلة:

– اجلبي لي فرشاة شعري من فوق طاولة الزينة. سأمشط شعري بينما نكمل حديثنا. «ساندي» حبيبتي، كذلك اجلبي لي المرآة وأمسكيها لي بينما أنا أمشط شعري. عملت «ساندي» ما طلب منها وهي تبتسم لنفسها. الظاهر أنها ستكون وصيفة خصوصية لابنة خالها بالإضافة إلى مربية ابنها. ثم قالت مخاطبة «مرتا»:

– لم تجيبي عن سؤالي؟ رمقتها «مرتا» بنظرة مزعجة عاتبة قائلة لها:

– كلا، لا أعتقد أنني عالة عليه وأكملت:

– زوجي «كروفورد» ينتمي إلى هذا المكان مثل «ليماند». وأنا أرملة «كروفورد» يحق لي البقاء هنا كما يحق لابني، ثم رمت فرشاة شعرها جانبًا ولمست كتف «ساندي» وأكملت قائلة:

– لا تهتمي بهذه الأمور ولا تنزعجي. يمكنك البقاء دون خوف. «ليماند» سيرحب بك مثلي بعد أن يرى بنفسه كم أنت بارعة في رعاية «ديرميد»! أجابتها «ساندي»:

– أنا لست مهتمة، لقد دعاني «ليماند» بنفسه للبقاء هنا فترة أسبوعين.

– دعاك هو بنفسه؟! إذن، لماذا كل هذا الجدل؟

– ما يزعجني هو شعوري بأني عالة عليه. بل كلنا عالة عليه. «مرتا»! لماذا لا تحضرين معي إلى «هامشير»؟ يمكنك الحصول على عمل وهذا أشرف لك من أن تكوني طفيلية عليه.

– أنا أجد عملاً؟! أوه، لا تقنعيني يا «ساندي»، فأنا لا أستطيع أن أعمل سوى عارضة أزياء. وهذا يعني أن أعمل ريجيمًا كي أستعيد شكلي ونحافتي.

www.rewity.com

ثم من يؤكد لي الحصول على عمل؟ ومن يرعى «ديرميد» في غيابي؟

– عمتك «جين» ترعاه. ألم تطلب منك البقاء عندنا يوم وصلت بعد وفاة زوجك؟

– كلا، يا «ساندي»، سأبقى هنا ولن أعمل. أكدت «مرتا» عزمها على تنفيذ خطتها ثم تابعت. قائلة:

– لقد اكتشفت هنا أنني امرأة مهمة. أنت تعرفين حب الظهور عندي إن اسم عائلة «كالدويل» على الرغم من ماضيها المريب وحاضرها المفلس؛ لأن وضعها المالي متردٍّ، هي عائلة عريقة ومعروفة في المنطقة ولها وزنها بين العائلات. ومع أن السير «كافن» كان متطرفًا ومنعزلًا عن الناس إلا أنه بطل من أبطال الجيش. ولقد انتخب «ليماند» مؤخرًا عضوًا في المجلس البلدي.

– لم أكن أعرف أن الوضع الاجتماعي يهمك لهذا الحد؟!

– صحيح. لم أكن أهتم به سابقًا. لكن اليوم وبعد تجربتي هنا، عرفت قيمته ولمست لمس اليد أهميته وما يعنيه. الجميع يرغبون في التعرف إليّ؛ لأنني أرملة «كروفورد كالدويل»، وكنة[1] السير «كافن كالدويل»، وزوجة أخ السيد «ليماند كالدويل». لهذا سأبقى، سأحاول إقناع «ليماند» بإعطاء «ديرميد» حصة أبيه في الميراث، وبعد ذلك سأكون سعيدة جدًا.

– لكن يا «مرتا»، ليس هناك ميراث أو مال قد تركه «كافن»، فقط هذه الأملاك وهي من نصيب الابن البكر.

– كيف عرفت ذلك؟

– لقد أخبرني بذلك «ليماند» ونحن في طريقنا إلى هنا قادمين من «ديمفريز».

– يا إلهي! لقد تكلّم «ليماند» معك كثيرًا. ثم حولت «مرتا» الحديث إلى ناحية أخرى وقالت:

– أنا أعرف أن لا وصية مكتوبة ولا شيء موصى لزوجي «كروفورد»، لكن ذلك لا يعني أن عمه لا يمكنه مساعدته. كل ما أبغيه لابني علمًا لائقًا في مدرسة محترمة، مثل والده «كروفورد»، ولا بأس لو دفع «ليماند» مصاريف تعليمه من جيبه. إن ذلك دين عليه يدفعه لابن شقيقه التوءم. على كل، ابني هو الوريث الوحيد الآن لهذه الأملاك.

– أظن ذلك. تمتمت «ساندي» وهي مطرقة تفكر في خطط ابنة خالها ثم قالت:

– ما هو دوري في مخططاتك؟ كيف يمكنني مساعدتك؟

– يمكنك مساعدة «ديرميد» على تحسين تصرفاته. تنهدت «مرتا» وكأن حملاً ثقيلا قد أزيح عن كاهلها وأكملت قائلة:

– إن تصرفاته بغيضة ورديئة. دائمًا يسيء التصرف أمام عمه «ليماند» ولا يوجد تقارب بينهما. يوم كنّا عندكم في «هامشير» لاحظت أنه يستمع إليك ويتصرّف جيدًا أمام الآخرين، حسب إرشاداتك. كم يسرني لو تفهمينه أن علاقته الحميدة بعمه تهمني أكثر بكثير من حسن انسجامه مع «بوب سكوت» أو «ول برودي»!

– من هما؟

– هما اثنان من عمال المزرعة. هو يحب أيضًا «جوني» كثيرًا. قالت «ساندي»:

– أظنهم يهتمون به ويتكلمون معه ويشاركونه لعبه. ثم أردفت:

– ألا يهتم به «ليماند»؟

– أظنه يحبه، لكن «ديرميد» يهرب منه كلّما التقاه ويصرخ قائلاً:

– حضر القاتل الأزرق. رفعت «مرتا» حاجبيها إشارة إلى جهلها بالأسباب، ثم نظرت نظرة فاحصة إلى وجه «ساندي» وقالت:

– الظاهر أنك استطعت منذ البداية أن تتفاهمي مع فارس «دانكريغان»، ولهذا السبب عليك أن تقنعيه بتلبية طلبي. عليك أن تليينه ليعطف عليّ وعلى ابني.

– أنا ألينه؟ كيف؟!

– أوه، يا «ساندي» كم أنت بريئة! يمكنك تليينه باستعمال سحرك الأنثوي عليه. لقد دعاك «ليماند» للبقاء هنا، وهذه إشارة جيدة إلى نجاحك.

– أنا! لا أستطيع! ولا أريد أن أفعل أي شيء من هذا القبيل. تراجعت «ساندي» إلى الوراء خائفة وقالت:

---

(1) الكَنّة: امرأة الابن أو الأخ.

– أنا لست من ذلك الصنف من البنات! لماذا لا تجربين أنت بنفسك تليينه كما تقولين، أنت أكثر خبرة مني في هذا المضمار؟ ضحكت «مرتا» ضحكة مثيرة لها مئة معنى ومعنى. ضحكتها تلك تدير رؤوس الرجال مهما بلغ عنفوانهم، كانت «ساندي» تفكر مهمومة، التفتت إليها «مرتا» وقالت:

– جربت سحري عليه يا حبيبتي. فلم أفلح. إنه صلب وطينته تختلف عن طينة شقيقه «كروفورد». من الصعب عليّ إيجاد نقطة ضعفه. وبما أنك من طينة مختلفة عن بقية النساء، ربما تفلحين أنت حيث فشلت أنا، ربما تعرفين نقطة ضعفه. هو لا ينفر من الجنس اللطيف وجاذبيته، وله شهرة واسعة في هذا المضمار مع الفتيات هنا قبل رحيله إلى الخارج... أنت يا «ساندي» جذابة ومثيرة إذا خلعت بنطلونك الجينز ولبست فستانًا يبين سحر أنوثتك. أجابتها «ساندي» بحدّة ونزق:

– لكنني أرتاح في البنطلون وأجده اقتصاديًا. وضعت المرآة التي كانت تحملها لـ «مرتا» لتمشط شعرها ووقفت لتخرج من الغرفة بعد أن شعرت بأن المحادثة بينهما أصبحت مزعجة. حملت الصينية ونظرت إلى ابنة خالها التي ما تزال في فراشها وقالت:

– يمكنك النهوض. ستصبحين سمينة أكثر إذا بقيت وقتًا أطول في الفراش. تمطت «مرتا» في فراشها وقلبت شفتيها علامة الامتعاض من تعليقها وقالت:

– فهمت قصدك يا بنة عمتي. أحذرك يا «ساندي» أن يومًا قريبًا سيأتي وتتمنين رجلاً يراك امرأة مميزة. كلّنا نمر بهذه التجربة إن آجلا أم عاجلا. هنا تكمن المشكلة عندئذ. سألتها «ساندي» وهي تتجاهل تشعب الحديث وانحرافه عن طريقه الأصلي:

– ماذا ترغبين أن أفعل مع «ديرميد» اليوم؟ ثم فتحت الباب لتخرج. فقالت «مرتا»:

– خذيه إلى الشاطئ. إنه يحب اللعب هناك. سأراك فيما بعد. كان «ديرميد» فرحًا وهو يقود «ساندي» إلى الشاطئ. كان يقفز صامتًا ويده الصغيرة في يدها، بينما يحمل في اليد الأخرى سطلا ومجرفة صغيرة. وصلت وإياه إلى خليج صغير حيث المياه نظيفة تتراقص فوق الرمال. تحيط بعض الصخور الرملية

بالخليج. أطفال وشباب يمرحون على الشاطئ. وجد «ديرميد» أصدقاءه وهما، فتاة صغيرة من عمره. شعرها أشقر حريري منسدل على كتفيها، وعيناها زرقاوان واسعتان واسمها «لورنا»، وشقيقها «إيوان» في الثالثة والنصف من عمره. شعره أحمر بلون الصدإ ووجهه مليء بالنمش. كان مع «لورنا» و «إيوان» مربية متوسطة العمر وقد جلست فوق مقعد وأمامها رمال الشاطئ. تركت الأولاد يلعبون أمامها ولم تشاركهم لعبهم، كذلك لم تكلمها «ساندي» أو تحييها. لعبت «ساندي» مع الأولاد بالطابة وصنعت لهم من الرمال أشكالاً مختلفة وحفرت بمساعدتهم القنوات الرملية وغطست رجليها في المياه الباردة. انتهى الصباح على هذا الحال. ولما حان وقت الغداء أخذت «ساندي» «ديرميد» عائدة به إلى «دانكريغان» بعد أن وعدت الولدين برؤيتهما مجددًا. وصلت «ساندي» إلى المنزل فوجدت ابنة خالها قد اغتنمت فرصة ذهابها مع «ديرميد» فذهبت برفقة «جوني» إلى «كيركتون» لزيارة الحلاق وتصفيف شعرها وسوف لن تعود قبل الثالثة بعد الظهر. تغدّت «ساندي» و «ديرميد» وصعدت وإياه من أجل قيلولته. بعد أن اطمأنت إلى نومه دخلت غرفتها لتكتب لوالديها رسالة تخبرهما بأنها وصلت سالمة وتعلمهما أخبار «ديرميد» و «مرتا». بعد أن انتهت من رسالتها وضعتها في مظروف وكتبت عليه العنوان ثم وضعته في جيب بنطلونها؛ لتضعه في البريد في طريقها إلى الشاطئ بعد الظهر. وقفت «ساندي» تمتع نظرها بالقلعة العظيمة، من نافذتها. حجارتها الرمادية تلمع في ضوء الشمس. خلفها تنساب المياه تلألأ عند مصب النهر بهدوء. تذكرت حلم ليلة الأمس. تساءلت هل يوجد سجن في قبو الحصن؟ نظرت إلى ساعتها تستطلع الوقت. سيبقى «ديرميد» نائمًا نصف ساعة أخرى على الأقل. هذا الوقت. يكفيها لتذهب إلى الحصن وتلقي نظرة فاحصة عن كثب. ربما تتعرّف أماكن التنقيب التي بدأ يستكشفها «كافن» في حفرياته التنقيبية. في خلال دقائق كانت تمشي إلى الحصن عبر ممر ضيق بين صفي حجارة تغطيها الزهور الملونة تطير فوقها جماعة من النحل تمتص رحيق الأزهار. رائحة الزهور ذكية والهواء دافئ هادئ وصوت خرير المياه ينساب إلى الشاطئ البعيد، كل ذلك اجتمع ليعطي جوًّا آخر من عالم قديم. كانت «ساندي» تمضي وحدها كأنّها تدخل إلى عالم الماضي. تعاظم هذا الشعور

لديها لمّا وجدت الممر انتهى فجأة وظهر أمامها منحدر مغطى بالعشب الأخضر انتهى بفجوة دائرية حول الحصن ثم بدأ يرتفع إلى هضبة صغيرة بني فوقها الحصن. الفجوة: هي الخندق المائي الذي يلف الحصن قديمًا. ركضت «ساندي» إلى أسفل الفجوة ثم صعدت إلى الجهة الثانية، إلى الحصن. فوقها مباشرة حجارة البرج الرمادية ارتفعت عمودية منبسطة، وفوقها سطح الحصن ذو الفتحات التي تطلق منها النار وقت القتال. حجارتها خشنة وصلبة تتحدّى السماء الزرقاء فوقها.

مشت «ساندي» إلى الأمام. دارت خلف الحصن فوجدت بابًا مزدوجًا في الحائط الشرقي. يوصل هذا الباب إلى طريق جانبية تؤدي إلى جسر خشبي يرتفع فوق الفجوة، خندق الماء، ثم تنعطف إلى غابة صغيرة تؤدي إلى الطريق العام. كان أحد البابين المزدوجين منفرجًا قليلاً. اقتربت «ساندي» ومدّت رأسها مستطلعة. انتابها شعور بأنها دخلت القرون الوسطى للحظة، ثم اختفت. وجدت نفسها داخل ساحة مربعة مليئة بالسيارات القديمة. كان هناك سيارة «رولز رويس» زرقاء، لماعة، يعود موديلها لعام 1910. قربها سيارة «سبور بتتلي» خضراء موديلها عام 1930 مقاعدها جلدية سوداء، ويلفها شريط خارجي أسود. وهناك أيضًا سيارة «أوستن» سبعة صغيرة جدًا ولكنها عريضة قليلاً. عرفت «ساندي» أن هذه السيارات تخص «كروفورد». أجالت بعد ذلك نظرها إلى الغرفة فوجدت موقدًا حجريًا كبيرًا في وسط الحائط. وبعد مراجعة معلوماتها التاريخية قررت «ساندي» أن هذه الغرفة كانت مطبخًا في حصن من حصون العصور الوسطى. يوجد في زاوية الغرفة المربعة سلمًا دائريًا مبنيًا في الحائط. تسلّقت السلالم اللولبية الحجرية بتأنٍ. لاحظت كيف كانت منخفضة في منتصفها من كثرة ما مشى عليها بقوة جنود أشداء. وصلت بها السلالم إلى غرفة كبيرة فارغة. سقف الغرفة عارضات خشبية مائلة. كانت الشمس تدخل الغرفة من فتحات صغيرة هي نوافذ دون زجاج. مشت «ساندي» ببطء وكانت تتحقق من موقع أقدامها خوفًا من أن تكون الأرض الخشبية مهترئة. اقتربت من النافذة ونظرت إلى أسفل حيث مياه النهر تلمع عند المصب. انقشع الضباب ظهرًا وتراءت لها تلال «إنجلترا» من مسافات بعيدة.

أعادت تفحصها في داخل الغرفة. لابد من أنها القاعة الكبرى في الحصن. هنا تجتمع العائلة للطعام. تخيّلت طاولة كبيرة عليها أباريق خزفية أو معدنية وقربها مناسف الطعام المدورة مليئة باللحوم. النساء يرتدين الثياب الفضفاضة الطويلة. الرجال يلفون رؤوسهم بما يشبه الخمار. ويلبسون سترواتهم الجلدية الطويلة والضيقة، دون أكمام مع سراويل ضيقة. أمكنها أن تتخيّل كلاب الصيد منبطحة، وممددة تحت الطاولة تنتظر العظام. رجعت إلى السلالم، أكملت صعودها إلى الطابق التالي. وجدت نفسها في العراء على السطح. سقف الحصن قد اختفى منذ أمدٍ بعيد وما بقي منه سوى غرفتين. عرفت ذلك من المدفأتين الموجودتين في الحائط الشمالي. نظرت إلى ساعتها من جديد. وجدت أن عليها العودة إلى المنزل. نزلت إلى الطابق السفلي بتأنٍ. لم تلاحظ وجود قبو أو سجن في الحصن. لابد من أن تعود إلى هنا مرّة ثانية؛ لتكمل جولتها في الحصن وتكتشف بقية أجزائه. لفت حول السيارات الثلاث، واقتربت لتفتح الباب الخارجي. تذكرت أنها تركته مفتوحًا خلفها. هل من المعقول أن تكون قد أغلقته دون أن تشعر؟ لم تعد تذكر. جربت فتح الباب. لم يفتح؛ لأنه قد أقفل بمفتاح. يا لدهشتها! أحدهم أقفله حين كانت تتفرج على الحصن في الطوابق العليا.

يجب عليها أن تتصرّف بسرعة وإلا ستبقى سجينة الحصن بقية يومها أو ربما حتى ليلها أيضًا صعدت السلالم مسرعة إلى الطابق الأول. قطعت الحائط الشمالي ومدت رأسها من فتحة النافذة. هناك أحد يمشي مبتعدًا عن الحصن وقد خرج لتوه من الفجوة. عليها أن تصرخ لتسترعي انتباهه. مدّت جسمها فوق الحجارة وجعلت من يديها بوقًا أمام فمها وصرخت بأعلى ما يمكنها قائلة:

– يا هذا... أنت، عدْ إلى هنا! لقد أغلقت عليّ الباب! تسمّر الرجل لمّا سمع النداء. لأول وهلة ظن أن ماسمع وهمًا. عاود مشيته مبتعدًا. أعادت «ساندي» الصراخ وأردفت بصفير شديد

التفت الشخص خلفه بعد أن توقف عن متابعة سيره وعاد هذه المرة أدراجه إلى الحصن ثم نزل الخندق وصعد إلى الجهة الثانية. ولما اقترب من الحصن عرفت «ساندي» أن مخلّصها هو فارس «دانكريغان» «ليماند كالدويل». اقترب

تحت النافذة ووضع يديه على ردفيه ورفع رأسه إلى أعلى لينظر إليها. كانت هي تطل من النافذة فوقه. صعقت لما رأته. مرت لحظة ظنت نفسها تعيش حلم ليلة الأمس. سألها بسخرية:

– ماذا تفعلين هنا؟ كانت الشمس ترخي أشعتها على وجهه الأسمر وتحدد صلابة أنفه وفمه وحاجبيه وفكه. يلبس زيًا رماديًا من الصوف الجيد مع قميص أبيض وربطة عنق. تذكرت أنه كان في اجتماع مع أعضاء المجلس البلدي. قالت بطريقة محببة تحاول أن تخفّف من ذنبها:

– أمتع نظري فقط! فرحت لما لاحظته يبتسم من طريقة جوابها كأنها تسخر من سؤاله. أخفى ضحكته بسرعة ولكنها عرفت أنه يتمتع بروح نكتة ولكنه يخفي ذلك عن الجميع. ثم أكملت بصوت متوسل:

– أرجوك، افتح لي الباب لأخرج. حملق إليها كأنه يفكر قبل أن يجيبها إلى طلبها.

–عليّ أن أبقيك سجينتي. احتجت وبان على وجهها الخوف ولكنه أكمل قائلا:

– سأطعمك، وأجلب لك الحلويات واللحوم، والسمك الطازج سأحمل لك أحواض الفاكهة المنوعة وأباريق الشراب المعتق عن الطاولة في داخل الحصن. سأجلبها في ظلمة الليل حتى لا يراني أحد ولا يراك أحد. حتى لا يعرف أحد أن عندي ساحرة جميلة في الحصن سجينة. سنجلس نقتسم الطعام والشراب في ضوء الشموع وبعد ذلك... توقف فجأة ونظر إلى مجموعة مفاتيحه التي أخرجها من جيب سرواله ثم نظر إلى أعلى مرة أخرى وقال:

– سأخرجك. قال ذلك ببرود ودون أي اكتراث.

مشت «ساندي» إلى ناحية الباب بعد أن سحرها حلمه الذي شرحه لها. كيف لاوهي جميلة الحصن السجينة؟ عاشت لحظات مسحورة. نزلت السلم اللولبي وكانت تنتظر الفتيات بالأثواب الفضفاضة ينحنين تحت قدميها. صدمتها الحقيقة لما وصلت إلى أسفل السلم ووقع نظرها على السيارات القديمة. فتح «ليماند» الباب. كان ينتظرها متوتر الوجه دون أية ابتسامة. التقت عيناها الفزعتان بعينيه الخاليتين من أي تعبير. تحيّرت كيف تغير وبهذه السرعة، قال لها:

– قدومك إلى الحصن وحدك وصعودك السلالم المهترئة جنون ثم أكمل قائلا:

– الأرضية الخشبية فوق غير سليمة. ولو لم أسمع نداءك لبقيت في داخل الحصن الليل كله.

– لم أعرف أنك ستعود لتغلق الباب! كان الباب مفتوحًا عندما دخلت ظننت أنه يبقى مفتوحًا دائمًا. ثم فكرت في نفسها: «لا عجب أن تجدّه «مرتا» غامضًا ولا تفهمه. منذ لحظة كان يحيك أجمل الأحلام والآن هو بارد كجلمود صخر».

– في الغالب ترك «جوني» الباب مفتوحًا حين حضر ليجلب بعض المعدات لإصلاح الجرار. نحن نستعمل الطابق الأرضي كمخزن للآليات وقطع الغيار والموتورات. أنا أقفل عليها؛ لأن للسيارات بعض القيمة الأثرية على ما أعتقد.

– هذه السيارات تخص «كروفورد»، هل ستعطيها لابنه «ديرميد»؟ نظر إليها نظرة ريب وتشكك وقال:

– هل حضرت إلى الحصن لرؤيتها؟

– كلا، لم أكن أعلم أنها موجودة في داخل الحصن. أردت زيارة الحصن والتحقّق من وجود سجن في القبو هناك. لكنني لم أعرف طريقي إلى الطابق السفلي.

– الطريق إليه من هناك في الزاوية من باب يفتح من الأرض، هل تحبين رؤيته الآن؟

– ليس الآن، شكرًا. لا وقت لديّ. ربما يكون «ديرميد» قد استفاق من نومه الآن وهو يسأل عني. خرجت من باب الحصن مارة من أمامه. خرجت إلى شمس شهر آب (أغسطس) الدافئة ونورها الواضح. تبعها. أقفل الباب خلفه ثم نزلا إلى الخندق وصعدا إلى الجهة الأخرى باتجاه المنزل. سألها:

– ما سرّ اهتمامك بسجن الحصن؟ أجابته:

– حلمت البارحة بأنني سجينة في الحصن ثم أكملت قائلة:

– لكنني شديدة الاهتمام بالحصن كله كأثر تاريخي. لقد أخبرتني «نان» هذا الصباح بأن والدك بدأ كتابة تاريخ حصن «دانكريغان» قبل موته.

– هل اهتمامك ينصب على الناحية التاريخية للحصن؟

– نعم، إنني أحمل شهادة بكالوريوس في علم التاريخ. تخرّجت لتوي في جامعة «دولشستر». تخصصت فيما يعرف بعصور ما قبل التاريخ. أي علم الآثار. وقد ساهمت فعليًا في حفريات تنقيبية عن الآثار في مناطق عديدة من جنوب «إنجلترا». كانا يمشيان الهوينى في اتجاه المدخل الرئيسي للقصر. النحل يطير حولهما يمتص رحيق الزهور ويؤكد أن الدفء ملأ المكان. دفء لذيذ يشعر معه الإنسان بالاسترخاء.

– لا أحد يراك ويتبين رابطة الدم بينك وبين ابنة خالك «مرتا». رمى «ليماند» هذه الملاحظة. رمقته «ساندي» بنظرة جانبية مستغربة ملاحظته وقالت:

– كلا، لا أظن أحدًا يلاحظ صلة الدم بيننا. فأنا أشبه والدتي وهي تشبه والدتها. والد «مرتا» هو شقيق والدتي، ولكن جمال «مرتا» هو فريد في عائلتنا.

– لم أقصد الشكل الخارجي، فأنا لا أهتم بالشكل الخارجي. أعني التصرفات والاهتمامات والطباع.

– صحيح، كذلك أنت وشقيقك «كروفورد» تختلفان كثيرًا في طباعكما، وتصرفاتكما، هذا ما سمعته في أثناء وجودي هنا، أنتما توءمان وشكلكما مطابق لبعضكما. إذن ليس من المستغرب أن يختلف أبناء العمومة في الطباع والتصرفات. تساءل بشك:

– وماذا سمعت في أثناء وجودك القصير هنا؟ فهمت «ساندي» أنها دون قصد قد داست على طرفه. شعرت كأنها لامست جرحًا عميقًا لديه. وكأنما قد وافقا مسبقًا على التوقف عن المسير... توقفا يواجه أحدهما الآخر. كانا قد وصلا إلى الممر بين ضفتي الحجارة. أصبحا كأنهما في مرفإ من الزهور العطرة، معزولان عن العالم كله. أجابته بسرعة كأنها ترفض أن ترهبها نظراته القاسية من عينيه السوداوين:

– سمعت أن «كروفورد» يختلف عنك كليًا. قال بسخرية وتهكم:

– هل هذا رأي ابنة خالك؟ أظن أنه كان يتنازل لها دائمًا ويلبي لها جميع طلباتها. كانت تفعل ما تشاء دون أن يردعها. هذه طباعه فهو يداهن ويمالق الجنس اللطيف دون استثناء.

– وهل أنت غير ذلك؟

– أفضّل أن أكون البادئ في أية دعوة لأية علاقة مع الجنس اللطيف.

– أعلم أن «مرتا» طائشة قليلاً ومستهترة نوعًا ما ولكنني واثقة بأنها أحبت أخاك وابنه بصدق. كانت تشرح له بحماس زائد بعد أن تذكرت مهماتها التي من أجلها استدعيت للعمل في «دانكريغان». رفع حاجبيه السوداوين وتشنجت عضلات وجهه وظهر بريق في عينيه رأت «ساندي» لهيبه قبل أن يبدي رأيه فيما قالته.

– هل تظنين أن الحب موجود؟ على الرغم من شهاداتك العلمية وقراءاتك التاريخية. هل تؤمنين بوجود هذه العاطفة؟ أما هي فتجمدت قسماتها وبسرعة قالت:

– نعم، أنا أؤمن بعاطفة الحب. إن دراستي للتاريخ ساعدتني على إيماني بالحب. ثم سألته:

– أنت لا تؤمن به؟ أجابها ببرود:

– في اعتقادي أنها كلمة فارغة من المعاني تستعملها النساء للتغطية والتمويه على أطماعهن الشخصية.

– أوه! كم أنت مخيف، كثير الشك، غامض! رمت كلماتها دون حذر وقد نسيت وظيفتها الجديدة في التأثير فيه وتليينه... ثم تابعت قائلة:

– أنت تعتقد أن «مرتا» تحب نفسها فقط عندما تزوجت أخاك، وأنها كانت تعمل لمصلحتها الشخصية حين لجأت إليك مع ابنها؟! ضمّ يديه إلى صدره ونظر إليها كأنها طفلة تحتاج إلى الإرشاد وقال:

– أليس هذا هو الواقع؟

– كلا. لم تحضر إلى هنا إلاّ بناء على رغبة أخيك حيث طلب منها أن تحضر «ديرميد» ليعيش في كنف عائلته آل «كالدويل».

– لهذا السبب تمدد إقامتها ونرحب نحن بها؟! لاحظت «ساندي» أنه يستفزها ليثير غضبها ويخرجها عن شعورها لذلك لملمت نفسها وبدأت هجومًا معاكسًا. سألته:

– وكيف تريدها أن تتصرف؟ هي هنا تنتظر منك مساعدة لابنها «ديرميد». ألا يتوجب عليك أن تساعد ابن أخيك؟ هل تطلب الكثير؟

www.rewity.com

– إذن، هي تنتظر مبادرتي. هل تعرفين ماذا ترغب؟ من المؤسف أن «مرتا» لا تواجهني بنفسها أو تفصح عمّا يجول في عقلها وتستخدمك كمراسلة بيننا. ما هي بالتحديد طلباتها من أجل «ديرميد»؟

– أنا... أنا أعتقد أن عليك أن تبحث الأمر معها هي. لملمت «ساندي» نفسها بعد أن وجدت نفسها مرة ثانية في موقف لا تحمد عليه وأكملت:

– ألم تبحث «مرتا» هذا الأمر معك سابقًا؟ هز رأسه نفيًا وقال:

– كلما حاولت التحدّث معها في أمور تتعلق بالمستقبل، تستقبلني بفيض من الدموع وأنا لا وقت لديّ لهذه التمثيليات. وهز كتفيه كأن ذلك لا يعنيه. تذكرت «ساندي» يوم طلبت منها «مرتا» أن تكتشف لها نقطة ضعفه، لأنها لم تنجح هي في اكتشافها مع أنها جربت معه جميع أسلحتها الأنثوية. كانت تستعمل طريقتها المعهودة بأن تمثل دور المرأة الرقيقة التي لا حول لها ولا طول، دور المرأة التي تنتمي إلى الجنس الضعيف اللطيف إلخ... كلما باءت بالفشل. تعجبت «ساندي» وتساءلت: «كيف تتوصّل هي إلى حواسه الداخلية وإلى تحريك عواطفه الإنسانية وإلى ما تحت درع الفارس؟ هل عنده شعور وأحاسيس مثل البشر أم هناك فراغ متحكم في داخله؟!» وصلت جلبة من الأصوات استرعت انتباهها. ظهر أمامهما «ديرميد» تتبعه «مرتا» في الساحة أمام مدخل المنزل. كان شعرها الذهبي الأحمر كأنه شعلة ملتهبة أو هالة نور حول رأسها الجميل. وجهها الأبيض المشبع بالحمرة وأنفها المرسوم في وسط وجهها ثم انفراج شفتيها الورديتين المتلئتين المثيرتين. كانت تركض خلف ابنها.

– هأنت هنا يا «ساندي»، «ديرميد» يبحث عنك في كل مكان. عدت من «كيركتون» ولم أجدك. ثم نظرت ناحية «ليماند» وأكملت قائلة:

– مرحبًا «ليماند». أهلا. لطفا منك أن تُري ابنة عمتي الحصن والمزرعة. كانت «مرتا» تتصنّع اللطف والكياسة وهي تخاطب «ليماند». تحاول إغواءه بشكل فاضح. شعرت «ساندي» باشمئزاز من تصرفات «مرتا». تأكدت «ساندي» أن «مرتا» بعملها هذا تعطي «ليماند» الفرصة ليسخر منها ويرميها بملاحظاته الجارحة وينتقد تصرفاتها. نظر «ليماند» إلى «مرتا» نظرة مخزية مشمئزة. لم تبالِ «مرتا» به بل كانت تركض ترنح فستانها الرقيق حول جسدها الملفوف

البض. كان فستانها شفافًا من اللون الأخضر والأبيض. فاجأ «ساندي» حين نظر إليها وغمزها بإحدى عينيه وهو يقول لـ «مرتا»:

– لكنني لم أكن أري ابنة عمتك الحصن، كنت أخلّص فتاة الحصن الجميلة من السجن داخل الحصن... أستأذنك لديّ بعض الأعمال. ترك «ليماند» «مرتا» و«ساندي» أمام المنزل ودخل. دهشت «مرتا» وهي تواكبه بنظراتها وفمها منفرج قليلاً. ثم قالت:

– في الحقيقة لم أفهم ماذا قال. أليس هو غريب الأطوار؟ ماذا يعني بقوله يا «ساندي»؟ وجدت «ساندي» نفسها تخفي ضحكة عريضة بداخلها، ولم تدر بماذا تجيب «مرتا». أسعفها «ديرميد» حين سأل كعادته:

– من هي فتاة الحصن الجميلة يا «ساندي»؟ هل أجد أنا في الحصن فتاة جميلة مثل عمي «ليماند»؟

– لا أظن ذلك. أجابته وصوتها متهدج:

– الفتيات الجميلات موجودات فقط في قصص الفرسان: مثل «لوجريز» أو قصص «الفردوس المفقود».

– من هو الفارس؟

– هو رجل يركب حصانًا ويقوم بالأعمال الحسنة، يخلص الفتيات الجميلات من التنين أو من السجن. حاول «ديرميد» تصحيح معلومات «ساندي» قائلا:

– لكن عمي «ليماند» لا يركب الحصان.

– كان الإنسان يركب الحصان في العصور القديمة أما اليوم فالإنسان يركب السيارة أو الطائرة...

– حقًا يا «ساندي»، أنت تفسرين أسوأ من «ليماند» عن جميلته سجينة القلعة. من سمع بفارس يركب سيارة أو يطير بطائرة؟ قالت «مرتا» ذلك بعد أن عيل صبرها من كثرة أسئلة ابنها. تركته مع «ساندي». سألت «ساندي» ابنة خالها «مرتا» قائلة:

– ألم يكن «كروفورد» فارسًا يوم تعرفت إليه أول مرّة؟ لكن «مرتا» نظرت إليها نظرة استغراب وحيرة. ثم سأل «ديرميد» من جديد:

– أليس «جوني» فارسًا؟ إنه فارس يركب الدراجة. لقد نزل مرة بدراجته

بسرعة هكذا... وبدأ «ديرميد» يركض ويقلد صوت الدراجة باتجاه الطريق العام. صرخت «مرتا»:

– قف يا «ديرميد». ثم نظرت إلى «ساندي» وقالت لها بلهجة آمرة:

– اجعليه يخفف ركضه. ربما تصدمه سيارة مسرعة. الحقي به بسرعة.

ركضت «ساندي» خلفه في محاولة أخيرة. توقف «ديرميد» قرب إشارة جانبية على مدخل المنزل الخارجي. توقف ينتظر «ساندي» ووالدته. ولما وصلا إليه مشى الجميع إلى الشاطئ. هناك التقى «ديرميد» بـ «لورنا» و «إيوان». قامت «ساندي» لتشارك الأولاد لعبهم إلا أن «مرتا» قالت:

– اتركيهم. لا خوف عليهم، لنجلس أنا وأنت نتحدّث معًا. جلسا قرب مقعد مربية آل «لندسي»، لكن المربية لم تعرهما أي انتباه.

– هي عجوز شمطاء، أليس كذلك؟ كانت «مرتا» تتكلم عن المربية مع «ساندي».

– لا تتكلم مع أحد.. «لورنا» و «إيوان» مرحين وينسجمان مع «ديرميد»، هل شاركتهم اللعب صباحًا يا «ساندي»؟ أجابتها «ساندي»:

– نعم، ثم قالت:

– هل يعيشون هنا؟

– يأتون إلى هنا في فصل الصيف فقط، والدهم «بيل لندسي» جراح عظام يجبر الأعضاء ويقوّمها. هو يملك هذا المنزل الكبير هناك في الناحية الأخرى للخليج. عرفت «ساندي» المنزل، لأنه يقع وحدّه على بقعة كبيرة من الأرض في الطرف الآخر للخليج. مربع ومتين ومدهون باللون الأبيض. تلف المنزل شجيرات خضراء تتجمع مع بعض وتحيط به حديقة كبيرة في نهايتها بعض درجات تصله بالشاطئ. أكملت «مرتا» قائلة:

– «بيل» هو نائب رئيس نادي «اليخوت» هذه السنة، وقد تعرّفت إليه يوم سهرت برفقة «جوني» هناك. نشترك كلانا في شيء واحد، فهو أرمل وأنا أرملة. لقد توفيت زوجته السنة الماضية. توفيت على أثر مرضها بابيضاض الدم أو اللوكيميا.

– أخبرتني «نان» به عندما ذكرت لها «لورنا» و «إيوان». عرفت من «نان» أن عائلة «لندسي» وعائلة «كالدويل» لم يكونا أصدقاء. تقول «نان» هناك خصومة

بين العائلتين. تساءلت «مرتا»:

– ماذا تعرف «نان» عن هذه الخصومة؟ ما رأيك في «نان»؟ أليست عجوزًا رجعية؟ إنها تبالغ في الاهتمام بـ «جوني» و «ليماند». في يوم سابق قرأت لي طالعي. تنبأت بأنني سأتزوج مرّة ثانية برجل يختلف كثيرًا عن «كروفورد». أتمنى أن تصدق تنبؤاتها بشأن الزواج. انتهت «مرتا» من ثرثرتها. اعترضت «ساندي»:

– لكن، لم يمضِ على وفاة زوجك «كروفورد» سوى أشهر قليلة. يجب ألا تتسرعي.

– أعرف، لكنني لا أرغب في البقاء أرملة بقية حياتي. قالت «مرتا» ذلك ونظرها ناحية الأولاد الثلاثة الذين يلعبون في الرمال. ثم غيّرت مجرى الحديث وقالت:

– أتعجب لماذا يبقي «ليماند» «نان» في إدارة منزله؟!

– من الصعب عليه أن يطردها من منزله بعد كل خدماتها السابقة. هي مربيته. لقد خدمت آل «كالدويل» عشرين عامًا.

– لكن «نان» كانت تقوم بأعمال أخرى غير تدبير المنزل. لقد سمعت قصصًا عديدة تحاك حول علاقتها بـ «كافن».

– ماذا تعنين بذلك؟ ضحكت «مرتا» قائلة:

– هأنت لا تفهمين من جديد.. وأكملت:

– في الحقيقة يا «ساندي»، لا أحد يظنك من الجيل الجديد المفروض أن يعرف كل شيء، ولا يدهش إذا قامت علاقة غير شرعية أو محرمة بين شخصين. على كل حال «كافن» كان رجلاً وسيمًا وكذلك كانت «نان» في صباها. وهي تحمل دم آل «كالدويل» وتفهم طريقة حياتهم، ثم هل تعتقدين أنه من الممكن أن تعيش معه في منزل واحد، كل هذه السنين دون أن يحصل بينهما أية علاقة؟

–نعم، من الممكن ألا يحصل بينهما أية علاقة. إن الجاذبية الحسية ليست كل شيء في الحياة. أنا أؤمن بأن الرجل والمرأة يستطيعان أن يعيشا معًا في منزل واحد أو يعملا في مكتب واحد أو ورشة عمل واحدة دون أي ارتباط حسي أو عاطفي بينهما. ورمقتها «مرتا» بنظرة ساخرة من طرف عينيها ثم

WWW.REWITY.COM

قالت:

– ماذا تعرفين عن هذه العلاقة؟ ما هي خبرتك؟ أنت تختلطين فقط بطلاب علم التاريخ. أو أساتذة تهتم بالحفريات والتنقيب في الماضي الدفين. كذلك لم تعيشي في منزل واحد مع رجل مثير. علقت «ساندي» وهي تكشر تكشيرة شيطانية:

– لا أظن أن والدي أو أخي «توم» يعملان لهما حسابًا؟ أكّدت «مرتا» قائلة:

– أنت تعرفين ذلك بالطبع. ثم سألتها:

– ألم تقابلي بعد رجلا شعرت بأنك تحبين العيش معه وترغبين في زواجه؟ فكرت «ساندي» في «ديرك سلون». هو الآن بعيد ينقب في جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. إنه زميلها في الدراسة.

– نعم التقيت أحدهم. أمرتها «مرتا» قائلة:

– أخبريني به. وقد اكتسى وجهها بريقًا عجيبًا، لأنها ستشارك ابنة عمتها سرها وتكسب بذلك ثقتها. ضحكت «ساندي» قائلة:

– ليس عندي ما أقوله. ثم تابعت:

– هو زميل جامعي درست وإياه في الجامعة نفسها. تكلمنا كثيرًا في علم الآثار. نتحمس إذا اكتشفنا قطعًا فخارية ونحن ننقب. كنت آمل أن أذهب وإياه هذا الصيف في بعثة تنقيبية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، ولكن طلبي رُفض بينما قبل طلبه.

– ما أسوأ ذلك يا حبيبتي! لماذا لم تقبلي؟

– كنت في لائحة طويلة ضمن الذين رفض طلبهم. العرض لديهم يفوق الطلب.

– هل تشتاقين إليه؟ نظرت «ساندي» إلى المياه المتلألئة في الخليج وأحست بحرارة الشمس تلفح وجهها وسمعت جلبة الأولاد وهم يلعبون. تذكرت أسرار الماضي الدفينة تحت أرض «دانكريغان» قبل أن تتكلم:

– كلا، لا أظن أنني اشتقت إليه بعد. ربما مع نهاية الصيف أتأكد ذلك.

– أوه. هو ليس بالحب الحقيقي إذن. سألتها «ساندي» وهي تضحك قائلة:

– متى يكون الحب حقيقيًا؟ هل تدق الأجراس وتفرقع المتفرقعات؟ ماذا حدث لك لما قابلت «كروفورد»؟

– لا أعرف، لم يترك لي «كروفورد» مجالاً لأكتشف الحب. التقينا في حفلة وقبل نهايتها تقدم يطلب يدي للزواج. كان دائمًا متسرعًا يتبع أهواءه. كلما أعجبه شيء كان يصرّ على اقتنائه.

– هل كنت أنت ذلك الشيء الذي أحبّه؟

– هو كذلك! أليس هذا صحيحًا؟ لكن الأمر قد انتهى كليًا الآن!

– ماذا تقصدين بقولك إن الأمر قد انتهى؟ سألتها «ساندي» بصوتٍ خافت بعد أن صدمت من حقيقة تغيير عواطف ابنة خالها بهذه السرعة. ثم استفسرتها قائلة:

– ألا تشتاقين إلى «كروفورد» وتحسين بالفراغ لفقدانه؟

– كلا، لا أشتاق إليه بعد اليوم. أظن أن تنبؤات «نان» ستتحقق. لقد وجدت شخصًا مختلفًا عن «كروفورد» هنا. ولهذا سأبقى. إنه متعقل ولا يتهور مثل «كروفورد». كثير التفكير والحيطة، متأنٍ وحذر. عليّ أن أقنعه بأن الزواج هو الصواب لكلينا. إقناعه يحتاج إلى الوقت. ربما سيأخذ ذلك مني فترة الصيف. كانت «مرتا» تتكلم ببطء وجدية على غير عادتها. شعرها الأحمر الذهبي تدلّت خصلاته إلى الأمام وعلى وجهها حين مالت برأسها إلى أسفل. التقطت بيدها خشبة صغيرة ورسمت على الرمال حرف «ل». حدقت «ساندي» في الرمال. ولما تبينت بوضوح الحرف سرت قشعريرة في جسمها وأجفلت. قائلة لنفسها: «إن حرف (ل) يعود إلى «ليماند». وحسب رأي «نان» «ليماند» يختلف كثيرًا عن «كروفورد» في كل شيء ما عدا الشكل الخارجي». أرادت «ساندي» أن تستوضح الاسم الكامل للحرف لكن ابنة خالها كانت مشغولة بالأولاد. لقد استرعى انتباهها صراخ الابتهاج الصادر عن «لورنا» و «إيوان». ركض الولدان عبر الرمال باتجاه شخص قادم نحوهما. كان طويلاً وشعره أحمر. قدم من المنزل الكبير وتصحبه سيدة طويلة ترتدي ثيابًا أنيقة جدًا. قالت «مرتا» تخاطب «ساندي»:

– هذا هو «بيل لندسي» ومعه أخته «هيلين» هي طبيبة وصلت لتوها من «أمريكا الجنوبية» حيث كانت تعمل مع مؤسسة «الأمم المتحدة»:

www.rewity.com

– أود أن تتعرفي إلى «بيل». أظنك ستحبينه. وأنا أود التعرف إلى أخته «هيلين». راقبت «ساندي» الرجل الطويل يرفع «لورنا» بين يديه ثم يعد بعد ذلك يده إلى «إيوان». وعلى بعد مسافة قصيرة وقف «ديرميد» ذليلا وقد اكتسى وجهه بالحزن. مسكين «ديرميد» الصغير! في مثل هذه الظروف يفتقد فيها الصغير والده ومحبته وحنانه. لاحظ «بيل لندسي» وجود «ديرميد». ضحك له وناداه:

– أهلاً يا «ديرميد»، أين الماما؟ وعلى الفور تألق وجهه الصغير وأشار بمجرفته الخشبية إلى ناحية «مرتا». وعلى الفور توجه «بيل» والأولاد إلى مجلس «مرتا» و «ساندي». بقيت «هيلين» تتبع الركب ببطء. كان وجه «بيل» صبوحًا مرحًا طبيعيًا كما أنه يمتلئ بالنمش.

– أهلا يا «مرتا». أراك تستفيدين من وجود الشمس ما استطعت.

– الشمس جميلة، أليس كذلك؟! كانت «مرتا» تتكلم وهي تضحك:

– أظن أن الشمس جاءتنا من الجنوب مع ابنة عمتي «ساندي» التي حضرت لتبقى معي في «دانكريغان». تبادلت «ساندي» التحيات الشكلية مع «بيل». أما «هيلين» فنظرت إلى «مرتا» بدهشة ثم سألتها بترفع:

– «دانكريغان»؟ قلت إنك تعيشين في «دانكريغان»؟!

– نعم، أنا «مرتا كالدويل»، أعيش مع شقيق زوجي «ليماند» هناك. شرح «بيل» لأخته بهدوء قائلا:

– «مرتا» هي أرملة «كروفورد». وعلى الفور اكتسى وجه «هيلين» كآبة. لم تحيِّ «مرتا» بل نظرت إلى شقيقها ثم قالت:

– علينا أن نعود إلى المنزل. والدتي تنتظرنا لترى الأولاد. دارت «هيلين» على أعقابها ومشت عائدة إلى المنزل وتركت خلفها صمتًا غريبًا ودهشة. مشت بلياقة فطرية ورأس مرفوع وكتفين مشدودتين. أما «بيل» فقد ارتبك ولم يعرف كيف يعتذر. قال:

– «هيلين» تشعر كالسمكة خارج الماء. هي لا ترغب في رؤية هذا المكان بعد أن تغير كثيرًا بعد مغادرتها إياه منذ خمس سنين. اعذريني. عليّ الرجوع بالأولاد إلى المنزل. سأراك في نادي «اليخوت». أنتظرك هناك يا «مرتا».

– سوف أكون هناك في انتظارك. مشى «بيل» إلى المنزل مع ولديه. كانا يقفزان

حوله مرحًا. نظرت «مرتا» إلى «ساندي» وعلى وجهها ابتسامة مزيفة. قلبت «مرتا» شفتيها امتعاضًا وهزت كتفيها النحيلتين إشارة إلى عدم الاكتراث. ثم قالت:

– ما هذا الصد! حاولت «مرتا» أن تجد لتصرفات «هيلين» مبررًا. شعرت «ساندي» بأن قطرات الدموع ترقرقت في عيني «مرتا» من شدة تأثرها. تابعت «مرتا» قولها:

– لم تحبني! لم أعجبها! ما هو السبب يا ترى؟

– ربما لأن اسمك «كالدويل» وربما هي تعتبر أن الخصومة بين العائلتين ما زالت قائمة.

– ربما ذلك. مشت «مرتا» صامتة في عودتها إلى «دانكريغان». لقد جرحت كرامتها من تصرفات «هيلين لندسي» لها. كان صدّها واضحًا للعيان ولم يخف على «ساندي».

– 3 –

بقي الطقس مشمسًا لعدّة أيام. اعتادت «ساندي» أن تذهب برفقة «ديرميد» يوميًا إلى الشاطئ قبل الظهر وبعده. ساعدت كذلك «ديرميد» في بعض دروس أولية في السباحة له ولصديقيه الصغيرين، «لورنا» و «إيوان». أمضت «مرتا» كذلك، معظم وقتها مع الأولاد على الشاطئ. لم تشاركهم اللعب كما تفعل «ساندي» ولكنها كانت تمضي الوقت تثرثر مع الأصحاب الذين تعرفت إليهم. أكثر من مرّة، حضر «بيل لندسي» إلى الشاطئ بعد أن أنهى عمله اليومي. كان يشاركها مقعدها حيث تجلس على الشاطئ تستمتع بحرارة الشمس وتكتسب سمرة محببة. لم تحضر «هيلين» ولا مرّة معه، ولم يأتِ «بيل» على ذكرها.

كانت «ساندي» تذهب من وقت لآخر إلى «كريغان»، وهي قرية صغيرة تقع على شاطئ النهر خلف المنزل من الناحية الثانية للتلة التي يقع الحصن فوقها. أحيانًا تذهب برفقة «جوني» على دراجته. قرية «كريغان» ميناء لصيد

الأسماك، القرية صغيرة وهي مركز صغير للملاحة ومنتجع صيفي. رُمّمت معظم أبنيتها لتصبح صالحة للسكن ومعظم بيوتها تقع على جوانب مصب النهر حيث تعكس المياه زرقة السماء وخضرة التلال على ضفتي النهر. كانت الرحلة إلى «كريغان» تسرها. وقت المد ترى المراكب الشراعية متجمعة عند المصب ترتفع. أشرعتها مختلفة الألوان، والأعلام مشرعة تحت أشعة الشمس يداعبها النسيم فترفرف بسلام. وحين الجزر تتضاءل مياه النهر فيصبح كساقية رفيعة تشبه في شكلها الحيّة الزرقاء. يظهر الطمي على ضفتي النهر فيتغير لونه من الأصفر الذهبي إلى البرتزي ثم البني الغامق حسب ما تعكس السماء.

التقت «ساندي» بـ «رون كارسن» في «كريغان». هو أكبر منها بقليل. عيناه زرقاوان وطبيعته ضاحكة مرحة، يعمل مهندسًا معماريًّا وشريكًا لوالده في عمله. غالبًا ما يصحب «رون» «ساندي» و «جوني» للنزهات البحرية في مصب النهر في مركبه الشراعي. لقد أمضت «ساندي» أول أحد لها في «دانكريغان» في هذه القرية.

صحت «ساندي» يومًا مبكرة لتجد أن الأسبوعين قد شارفا على الانتهاء. شعرت بوخز الضمير وهي تتذكر أنها حتى الآن لم تتوصل إلى أية نتيجة في مهمتها الموكلة إليها. لم تتوصل لمساعدة «مرتا» على إقناع «ليماند» كي يتكفل بتعليم «ديرميد»... وكذلك لم تعرف أي شيء بعد عن تاريخ «دانكريغان». كل ما فعلته أنها أمضت عطلة ممتعة كانت تسرح وتمرح على حساب شقيق زوج ابنة خالها. قفزت من فراشها يخالجها شعور بالذنب.

الساعة السادسة صباحًا. ستجد «ليماند» يتناول فطوره في المطبخ قبل أن يبدأ يومه بالعمل في أملاكه. إنه مراوغ كبير ويعرف كيف يتملص من وعوده. إنها تلتقيه دائمًا وقت الطعام ولكنه لم يحدثها بشأن «ديرميد» قط، كان يتناول طعامه صامتًا، ثم يعتذر ليذهب إلى مكتبه حيث ينكب على أكداس الورق أمامه، أو يخرج لمراقبة مشروع جديد ينفّذ في أملاكه. صمته وتحفظه، أيضًا، لم يسهّلا على «مرتا» مهمتها في اجتذابه والتأثير فيه؛ كي يقدم لابنها المساعدات أو... لبست بنطلونها الجينز وتذكرت حرف (ل) الذي رسمته «مرتا» فوق الرمال.

عبست متسائلة هل صحيح أن «مرتا» ترغب في الاستقرار في «دانكريغان» وتحاول اجتذاب «ليماند»؟ هل هو غايتها لتتزوج به؟ كانت تلاحظهما معًا. كان «ليماند» يشمئز من حركات «مرتا» الوقحة لاجتذابه. هو غريب الأطوار ولا يمكن لأحد أن يقرأ ما يجول تحت القناع الذي يلف به وجهه الجميل. لا أحد يستطيع معرفة ما يرى في عينيه السوداوين. نظراته مبهمة وباردة. دائمًا ينقل بصره بينهما هي و «مرتا» متفحصًا ويستخلص لنفسه ما يشاء عنهما.

مشطت «ساندي» شعرها بالفرشاة. نظرت إلى المرآة لتطمئن على شكلها. إنها جميلة وخداها ورديان، فمها واسع قليلاً مع امتلاء في شفتيها. أنفها مرسوم وعيناها رماديتان. قفزت من غرفتها إلى الدرج. كانت الساعة القديمة تشير إلى السادسة والنصف صباحًا. دخلت المطبخ. سرّت لأن «ليماند» ما زال هناك يجلس وحده. أمامه الشاي ويطالع مجلة وهو عابس. نظرت «ساندي» حولها. لم ترَ «نان». و«جوني» ما زال يحلب البقرات. إن فارس «دانكريغان» لها وحدها الآن. دقت ساعة العمل.

– صباح الخير – سلمت عليه مبتسمة. لم تقرر بعد بماذا تناديه – إنه يوم آخر جميل.

– صباح الخير. ثم عاد لمجلته يطالعها وهو يشرب الشاي. لم تستغرب برودة في استقبالها. لقد اعتادت ذلك منه. صبت لنفسها بعض الطعام. صدمتها الفوضى الكبيرة التي عمت المطبخ هذا الصباح لم يكن غطاء الطاولة عليها. كان عليها أن تفتش لتجد لنفسها فنجانًا أو ملعقة. من الواضح أن «نان» غير موجودة.

– أين «نان»؟

– إنها مريضة. طلبت منها أن ترتاح اليوم في فراشها، عليك أن تدبري طعامك بنفسك اليوم. حان الوقت لك ولابنة خالك أن تكتشفا أن هذا المنزل ليس فندقًا أو مدرسة داخلية استغربت «ساندي» هجومه غير المنتظر رفضت الوضع. إنه متحامل عليها. قررت أن تبقى هادئة من أجل أهدافها البعيدة معه.

– أعرف أنه ليس نزلاً ولا فندقًا. أنا أساعد «نان» قدر المستطاع. هل أستطيع

اليوم أن أقوم بأعمالها في غيابها؟ نظر إليها بطرف عين. مال كرسيه إلى الوراء وقال:

– أشك في قدرتك على ذلك!

– هل تظن أن لا حول لي ولا قوة؟ تبسّم من إجابتها وأضفت عليه البسمة جاذبية لا تقاوم. أجابها:

– أوه! كلا! أنا لست متأكدًا. يصعب عليّ أن أرى جامعية متخصصة في علم التاريخ تعرف أيضًا إدارة منزل في حجم منزلنا. حتى «نان» تجد صعوبة في الأعمال المنزلية الكثيرة، وهي تقوم بهذا العمل منذ عشرين سنة. لا أرغب في مس شعورك لكن جهدك لا يحتمل تحضير الغداء والعشاء لنا جميعًا، تنظيف المنزل والغسيل والترتيب ثم القيام بأعمال المزرعة الموكلة إلى «نان». كان يكلمها بكبرياء وغطرسة ولا يترك فرصة للسخرية منها ومن «مرتا» وجهلهما للتدبير المنزلي.

– أنت تجهل كليًا ما أستطيع أن أفعل. سأقوم بكل أعمال «نان» اليومية وأكثر وسأبرهن لك على ذلك منذ الآن. حملق إليها «ليماند» بعينيه السوداوين. لا تعابير فيهما. نظر إلى فنجانه الفارغ. كتم ضحكة كادت تفلت من بين شفتيه شعرت بها «ساندي». هل هو يضحك منها؟ ماذا ستفعل إن ضحك عليها!

– إذن، لقد صممت على إدارة أعمال المنزل اليوم. أقبل تحدّيك. برهني لي على أنك تستطيعين القيام بذلك. دهشت من موقفه وتراجعت قليلا إلى الوراء ثم قالت:

– لديّ شرط واحد. أريد أن تسمح لي برؤية مخطوطات والدك التي كتبها في تاريخ «دانكريغان». أخبرتني «نان» بأنها في المكتبة أريد أن تأذن لي بدخول المكتبة للاطلاع عليها. قال ساخرًا:

– كان عليّ أن أعرف أنك لن تقومي بالعمل دون مقابل. ثم حدّق إليها لحظة لقد فاجأه طلبها. ثم تابع:

– ما أغرب ما تطلبين! يمكنك رؤيتها ولكنني أحذرك من أن الفوضى تعم المكتبة. والدي لم يسمح لأحد بدخولها، وكذلك لم أهتم أنا قط بترتيبها بعده.

– هل لديك فكرة أين أجد المخطوطات؟

– ربما في جوارير المكتب قال ذلك ووقف لفوره. كانت ابتسامة ساخرة تلف وجهه وهو ينظر إليها متعجبًا قائلا:

– اتفقنا إذن: مقابل دخولك المكتبة وقراءة المخطوطات ستطبخين لنا الغداء والعشاء وتنظفين الصحون والمنزل وتغسلين وتقومين بأعمال «نان» في المزرعة. هزّت رأسها موافقة. خرج دون أن يزيد كلمة أخرى.

نظرت حولها في المطبخ. هالها قدم الأدوات النحاسية فيه. لا توجد أي تسهيلات كهربائية مما تجده في مطبخ والدتها. تحقّقت بذاتها المهمة الصعبة التي ألقت بنفسها فيها. لقد وقعت في الفخ الذي نصبه لها «ليماند» ولهذا السبب وافق سريعًا على شرطها. الآن هو يضحك عليها وعلى سذاجتها. غضبت مما وصلت إليه. صعدت لتتفقد «نان»، فوجدتها مريضة طريحة الفراش. وجهها شاحب ودوائر سوداء تلف عينيها.

– إنه الصداع. ينتابني دوريًا وعليّ أن أستريح في الفراش.

– لا عليك. لا تهتمي. سأقوم بأعمالك عنك. سأطبخ وأغسل وأفعل كل ما تفعلينه. هل يمكنك مساعدتي وإرشادي؟ ماذا رتبت من طعام للغداء؟ أخبرتها «نان» بأن اللحم والخضار للغداء وكذلك للعشاء ثم الشاي في الساعة الخامسة. طلبت منها تجميع البيض من قن الدجاج وأن تُعلبه للشحن في اليوم التالي. وقالت:

– جميل منك يا صغيرتي أن تساعدي. أنا أشكرك وكذلك سيشكرك «ليماند». فكرت «ساندي» في كلامها ثم ذهبت إلى غرفة «مرتا» وأخبرتها بكل ما حدث.

– يا «ساندي»، لقد وقعت في الفخ، لماذا حصل كل ذلك اليوم؟ إنني مدعوّة بعد الظهر إلى نادي الجولف؛ لألعب مع آل «إيرفنز» في نادي «كيركتون». لماذا تخذلينني؟ دعوتك إلى «دانكريغان» لمثل هذه الظروف حيث أخرج ولا ينشغل بالي على «ديرميد»، لا يتوجب عليك القيام بأعمال «نان» هنا. يستطيع الشباب تدبير أمورهم وحدهم في مثل هذه الظروف.

– أظنهم يستطيعون. تمتمت «ساندي» وهي ما تزال تتألم من معاملة «ليماند» لها. لابد وأنه يراها فتاة ساذجة بسيطة من السهل خداعها واستغلالها. ثم

أكملت حديثها مع «مرتا»:

– لا أستطيع أن أتراجع الآن. ربما يرسلني «ليماند» إلى بلدي إن لم أفعل ما وعدت به. على أية حال، العمل ليس كثيرًا. هو ليوم واحد فقط. ثم إن مساعدتي على تأمين العمل يعطيني شعورًا بأني لست عالة عليه.

– هل ما زلت تشعرين بتأنيب الضمير؟

– نعم، ماذا لو تطبخين أنت الطعام؟ ربما يعملك هذا تلفتين نظره إليك.

– أنا! أنا أطبخ في هذا المطبخ العتيق؟! أوه! كلا، يا «ساندي»، أنت وعدت بذلك وأنت تنفذين. أفضل أن ألفت نظره إليّ بطريقة ثانية... ضحكت «مرتا» ضحكة مبطنة ثم أكملت:

– عليك مباشرة الطبخ الآن، وإلا فلن ينضج الطعام في الثانية عشرة والنصف، موعد الغداء.

استغرق الطبخ الوقت كله. بالإضافة إلى أعمالها المتراكمة كان على «ساندي» أن ترد على الهاتف بين الحين والآخر مما زاد من أعبائها. تمنت لو بقي لديها المزيد من الوقت لترتيب الطاولة بطريقة أجمل ولترتيب نفسها كذلك. قدمت الطعام في وقته لكن اللحم ما زال قاسيًا ويحتاج إلى المزيد من الطهو. أكل الرجال دون تذمر. شكرها «جوني» وقال إنه تمتع بطعام شهي وتمنى أن تطبخ لهم مرّة ثانية في خلال إقامتها في «دانكريغان».

شعر «ديرميد» بأنه مهمل من الجميع. لم ينتبه إليه أحد. «ساندي» مشغولة عنه بأعمالها. بدأ يضرب بملعقته صحنه يريد المزيد من الحلوى. نظرت إليه «مرتا» وطلبت منه أن يصمت. كانت هي مشغولة عنه بالحديث مع «ليماند» لعلها تجذبه إليها أو تؤثر فيه. لم يرد «ديرميد» على طلبها بل بدأ يصرخ بصوتٍ عالٍ. نظر إليه «ليماند» وأمره أن يصمت وإلا يطرده من المطبخ. ذهل «ديرميد» من الأوامر التي أصدرها إليه عمه. سكت قليلاً وحدّق إليه لكن «ليماند» لم يعره انتباهه. أمسك «ديرميد» بملعقته ورمى بها عمه وصرخ:

– عمي المرعب. عمي المخيف. أنا أكرهك. لا أعتقد أنك فارس. إنك عمي المرعب. وقعت الملعقة أرضًا ولم تصب «ليماند». ساد الصمت. حدق الجميع عندئذ إلى «ديرميد». لقد نجح في لفت الأنظار إليه. حدق إليهم ثم انفجر باكيًا ومولولاً.

– خذيه إلى غرفته يا «مرتا». لا تجلبيه إلى الطعام معنا إلاّ إذا كنت واثقة بحسن تصرفه. كان صوت «ليماند» آمرًا. مشت «مرتا» دون معارضة؛ لأن «ساندي» أشارت إليها أن تطيعه. حملت «مرتا» ابنها وهو يرفض ويصرخ صراخًا حادًا. صرخ «ليماند»:

– اهدأ وإلاّ ضربتك؟ سكت «ديرميد» في الحال وكف عن العراك. حملته «مرتا» واستأذنت وهي تقول:

– «ليماند». إنه لا يقصد سوءًا. هو طفل صغير بريء.

– أعرف ذلك. لكن عليه أن يتعلم كيف يتصرّف منذ الآن. هو من آل «كالدويل» صعب المراس. عليك أن تكوني شديدة في تربيته وإلا سيصبح مجرمًا. حاولت «مرتا» أن تعترض لكن «ليماند» نظر إليها نظرة صارمة. تنهدت وخرجت مع ابنها من الغرفة وبعد دقائق خرج أيضًا «ليماند» و «جوني» من المطبخ.

نظفت «ساندي» الصحون الوسخة ورتبت المطبخ. صعدت إلى غرفة ابنة خالها لتواسيها. كانت واثقة بأنها تبكي وحدها. مرّت بطريقها إلى غرفة «ديرميد» وتأكدت أنه نائم وقت القيلولة. دخلت غرفة «مرتا» فوجدتها تجلس على حافة السرير وبيدها منديلها تمسح به دموعها من على خديها. رأتها «مرتا» فسارعت إلى القول:

– يا «ساندي»، ماذا أفعل؟ الأسبوع الماضي كان «ديرميد» حسن التصرف بعد حضورك ظننت أنه انتهى من نوبات الغضب التي تنتابه. انظري كيف تصرف اليوم. لقد بدأ «ليماند» يبدي اهتمامه بي ويتحدث إليّ ولم يعد يهملني كالسابق. أشعر بأنني عدت إلى البداية معه.

– لا أوافقك الرأي، أظن أننا نعرف الآن سبب نوبات الغضب عند «ديرميد». سألتها «مرتا» بعد أن مسحت دموعها ونظفت أنفها بمنديلها.

– كيف نعرف؟! لماذا يفعل ذلك؟ ما هي الأسباب؟

– إنه يكره أن يسترعي انتباهك أحد وخصوصًا «ليماند». أنا كنت مشغولة عنه ولم أستطع أن أعيره انتباهي لانشغالي بأعمال المنزل.

– أظنك على صواب. لكن متى أتكلم مع «ليماند»؟ أنا لا أراه إلاّ وقت الطعام. لم أصل بعد إلى أية نتيجة معه بشأن «ديرميد»، هل استطعت أنت؟

– لا، تكلمت معه فقط يوم وصلت وقد أخبرتك بما دار بيننا. «مرتا»، ربما أنت تضيعين وقتك ببقائك هنا.

– أرجوك لا تبدئي حديثك مرّة ثانية في هذا الموضوع. يجب عليه أن يساعد «ديرميد». الولد يحتاج إلى أب. ولم تستطع إكمال جملتها؛ لأنها غصّت بدموعها من جديد.

– بكاؤك لن يفيد. كفي عن البكاء قبل أن تشوهي جمالك وتظهر آثار البكاء على عينيك... عليك أن تخرجي بعد الظهر. متى ستذهبين؟ طيبت «ساندي» خاطرها. لاقت كلمات «ساندي» أذنًا صاغية عند «مرتا» فتوقفت عن البكاء وتبسمت من وسط الدموع. كأن الشمس ظهرت بعد المطر.

– هل تقصدين أنك سترعين «ديرميد» في أثناء غيابي؟

– بالتأكيد، لا أظن اعتنائي به يثقل كاهلي بالإضافة إلى أعمالي الأخرى.

– شكرًا يا عزيزتي، أقدر لك جميلك. نزلت «مرتا» من فراشها وقالت:

– ماذا سألبس؟ سيمر آل «إيرفنز» عليّ بعد ربع ساعة. ليس لديّ الوقت الكافي لأجهز نفسي للخروج. خرجت «مرتا» إلى نادي الجولف. أكملت «ساندي» ترتيب المنزل وتنشيف الصحون ثم كنست الأرض ومسحتها قبل أن يستفيق «ديرميد» من نومه. ولما ناداها «ديرميد» حملته من غرفته ونزلت به إلى المطبخ. كان «جوني» قد وصل لتوه. قال لها يطلب ودّها بابتسامة عريضة:

– علينا أن نجمع البيض الآن. سأساعدك على هذه المهمة.

أخذت «ساندي» «ديرميد» معها وساعدها على تجميع البيض. كسر عددًا منها من كثرة تشنجه وعصبيته. ما زال تحت تأثير مشكلته مع «ليماند». فقد ثقته بنفسه. ظنّ أنه سيعاقب على أي خطإ يبدر منه. طمأنته «ساندي» وأعطته بعضًا من لعبه يتسلى بها بينما أكملتْ هي ترتيب البيض في علبه من أجل شحنه في اليوم التالي. رنّ جرس الهاتف. كانت «مرتا» تضحك وهي تخبرها بأنها مدعوّة لتمضية السهرة خارج المنزل وتطلب منها الاعتناء بـ «ديرميد» والاهتمام به لينام. أكدت لها «ساندي» أنها ستفعل ما طلبته منها ثم أقفلت السماعة وعادت إلى المطبخ. قررت إطعام «ديرميد» قبل موعد «ليماند» وصعدت به إلى غرفته لينام.

ولما حضر «ليماند» لم يكن العشاء جاهزًا. حاولت «ساندي» أن تشرح له الأسباب إلاّ أنه رمقها بنظرة ساخرة كعادته، لكنه لم يتكلم بل دخل إلى مكتبه. وأخيرًا جهز العشاء. حضر الجميع إلى المطبخ وأكلوا. كانت «ساندي» متعبة جدًا. ولما انتهت من حمّام «ديرميد» وقص القصص عليه. نزلت إلى المطبخ لتكمل غسيل الصحون، وجدت «جوني» قد سبقها إلى الجلي.

– شكرًا يا «جوني»، أنت ملاك من السماء.

– ليس كذلك. لقد شرح «ليماند» لي تفاصيل غسيل الصحون بعد أن أوكل إليّ هذه المهمة. هل ترافقينني إلى «كريغان» بعد أن ننتهي؟

– لا أستطيع. «مرتا» خارج المنزل. عليّ البقاء مع «ديرميد»؛ لأن «نان» مريضة ولا تستطيع رعايته، وأريد أن أدخل المكتبة وأفتش فيها عن مخطوطات تاريخ «دانكريغان». لقد سمح لي «ليماند» بذلك. هل تدلني أين المكتبة؟

رافقها «جوني» عبر الممر وفتح بابًا قرب السلم الداخلي. دخلا غرفة سقفها مرتفع، تكتنفها الظلمة. أدار «جوني» زرًا كهربائيًا ليزيل العتمة. هناك ثلاث نوافذ عريضة ستائرها داكنة. أزاحت «ساندي» الستائر وفتحت النوافذ ليدخل النور وفي الحال عمّ الغبار الأسود المكان، ومزقت الستارة من أعلاها وتدلت من طرفها وبقيت معلّقة ببعض الدوائر الخشبية التي تشدّها إلى السقف.

– فوضى كبيرة، أليس كذلك؟ نظرت «ساندي» فإذا بها ترى صورتها معكوسة في مرآة كبيرة إطارها مطلي بالذهب معلقة فوق المدفأة الأنيقة. إلى جانبي المدفأة رفوف مليئة بالكتب. لابد من أن تكون هذه الغرفة قاعة الاستقبال الرسمية قبل أن يحوّلها «كافن» إلى مكتبة يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر.

– كيف يمكنهم أن يهملوا المكتبة بهذا الشكل؟ تعجبت «ساندي» وهي تتفحّص الغرفة والكتب المبعثرة حولها هنا وهناك وفي كل مكان.

– الرجل العجوز كنت أناديه عم «كافن»: كان معتزلا عن الجميع. يغلق على نفسه ويبقى هنا أيامًا كاملة. كان يكتب تاريخ «دانكريغان». مشت «ساندي» إلى المكتب حيث أكداس الأوراق. إلى يمين المكتب صينية فضية عليها زجاجة شراب تحتوي على سائل أصفر. إلى شمال المكتب في إطار من الفضة صورة

زواج رجل في الأربعين. شعره أسود وعيناه سوداوان. يلبس بذلة ضابط حارس في الجيش الاسكتلندي. قربه صبية بفستان زفاف أبيض تصغره بعشرين سنة تقريبًا. شعرها أسود لكن عينيها ملونتان وعلى فمها ابتسامة مرحة عابثة.

– ماذا حل به؟ لماذا اعتزل الناس؟ ألأن زوجته ماتت؟

– نعم، غرقت في مصب النهر.

– غرقت وهي تسبح؟

– كلا، لم أرَ هذه الصورة قبل الآن. كانت جميلة جدًا، أليس كذلك؟ كانت تصغره بعشرين سنة. أظن أن هناك بعض الحقائق للإشاعات التي راجت حولها.

– ما هذه الإشاعات؟ قل لي يا «جوني». توسلت إليه «ساندي» وهي تشعر بأن بعض الغموض بدأ يتكشف لها.

– يوم غرقت كانت في نزهة بحرية برفقة رجل على متن يخته. تقول الإشاعة إنها كانت في سبيل الهروب معه إلى «أيرلندا» فقلبت الرياح العاتية اليخت في مصب النهر، عند حدوث المد، ولم ينجوا، ووجدت الجثتان على الشاطئ...

– أليس لديك شيء أفضل من أن تضجر «ساندي» بثرثرة محلية؟ كان صوت «ليماند» وراءهما. التفتا بسرعة نحوه. الشعور بالذنب يلفهما. كان «ليماند» واقفًا في وسط الغرفة، عابسًا. لم يكن راضيًا عن سماعه المحادثة التي تناولت والديه.

– رغبت «ساندي» في أن ترى المكتبة. قال «جوني» ذلك وقد أحس بالخجل من أخمص قدميه حتى قمة رأسه. قال «ليماند» يخاطب «جوني» بصوت هادئ ومتزن:

– «نان» ترغب في رؤيتك. إنه الاجتماع الشهري للمنظمة الريفية اليوم. هي مريضة وترغب في أن تحمل اعتذارها عن الغياب بسبب المرض، مع وقائع الجلسة الأخيرة.

– حاضر. أعتذر لك يا «ساندي» فالواجب يدعوني. ضحك «جوني» ضحكة صفراوية بينما هو حزين؛ لأنه تركها وحدها تحت رحمة «ليماند» القاسي.

– لم نكن نثرثر. كنت أرغب في معرفة أسباب اعتزال والدك عن العالم

وترك كل شيء هنا يتلف ويفسد بالتدريج. كان «جوني» يخبرني بالقصة الحزينة.

– لكنها لا تهمك بشيء.

– لا أوافقك الرأي، كل ما حصل في الماضي يهمني؛ لأنه يساعدني على فهم الحاضر. قال ساخرًا:

– آه، نسيت، أنت متخصصة في علم التاريخ. تهتمين دائمًا بالأسباب والنتائج. نظر حوله في الغرفة وقال:

– لم أكن أعرف أن المكتبة على هذه الحالة المتردية. ربما عليّ أن أحرقها جميعها: الأثاث، الكتب، الستائر...

– أوه! لا، إنه انتهاك للحرمات. الكتب والأثاث يمكن تنظيفها. بعضها له قيمة أثرية كبيرة.

– وهل تظنين ذلك؟ كيف يمكنني أن أعرف قيمتها؟

– أنا واثقة بما أقول. لابد من أن أحدًا في متحف «غلاسكو» يستطيع تقييمها لك. أما المفروشات فأي شخص يعرف في الأثاث يساعدك على تقدير القيمة الأثرية للكراسي والمكتبة.

– لكن. علينا أولًا تنظيفها قبل أن نسأل أي شخص.

– أنا أستطيع أن أنظف الكتب وأمسح الغبار عنها وأرتبها.

– أنت مجتهدة ومستعدة دائمًا لتقديم الخدمات. لم أشكرك لمساعدتك اليوم! كان عملك أفضل مما توقعت. كان حديثه صادقًا قالت «ساندي» في نفسها: «لا تدعي مديحه يخدعك. ربما قد تصب لك فخًا آخر للمزيد من العمل المرهق». أجابته:

– شكرًا، ربما اقتنعت الآن بأن المرأة تستطيع أن تقوم بتدبير المنزل الذي هو حقلها منذ بدء الخليقة بالإضافة إلى تسلحها بالعلم والمعرفة. فالشهادات الجامعية لا تعوقها عن أداء أعمالها المنزلية. كانت تكلمه برصانة مجابهة الند للند. نظرت إلى وجهه، هناك دلائل انفعالات بادية عليه، لكن عينيه لا تفصحان عن شيء.

– أنت لا تحبينني، أليس كذلك؟ لم يكن لدى «ساندي» أي جواب حاضر. تذكرت مهمتها الدبلوماسية من أجل «ديرميد». قالت مدافعة عن نفسها:

– أنا لا أعرفك حق المعرفة.
– كم أنت حذقة! أنت لا تحبينني فلا تخدعيني، أنا في نظرك لا أحتمل، صلب، وكثير الشكوك.
– من قال لك ذلك؟ أنا... أعتقد أنك غير راضٍ عني وعن «مرتا».
– ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟
– طريقتك في معاملتي. دائمًا تسخر من تصرفاتي وأفكاري كل ذلك يشير إلى أنك تحمل لي روح العداء وعدم الرضا.
– هذا غير صحيح... قولي لي ماذا كنت تنتظرين قبل مجيئك إلى هنا؟ مغامرة عاطفية مع شاب اسكتلندي؟
– أوه! تساءلت «ساندي» في نفسها. لماذا تجد نفسها تتحارب وإياه بالسيوف كلما اجتمعت به، بينما العكس هو طلبها للتفاهم معه على مهمتها بشأن «ديرميد» وتابعت:
– لا تكن فظًا. أنا لم أنتظر شيئًا من هذا القبيل. أنا لست فتاة لا ترى في الرجل سوى... أكمل عنها جملتها:
– سوى رجولته، أليست هذه هي الكلمة الشائعة؟ أخبريني إذن، كيف ترين الرجال من عليائك؟ هل ترينهم كما تراهم «مرتا»، مصدرًا لتأمين المأكل والملبس، موطنًا للحماية والتأمين ضد المصائب، كبش الفداء للتكفير عن أخطائك؟
– كلا، كلا. إنهم أناس. أتكلم مع أحدهم في أشياء نشترك في اهتمامنا بها. نتباحث ونتبادل الرأي حولها، نتفاهم... أتمنى أن يراني كما أراه إنسانًا سويًا. كانت «ساندي» تشرح رأيها في الرجل وقد أفزعها ما قاله عن «مرتا». أحست «ساندي» أنه يتفحصها بعينيه السوداوين من أخمص قدمها إلى جذور شعرها. ثم قال:
– ربما يراك بعض الرجال هكذا! تمتم وقد ظهر في عينيه وميض من الإعجاب بها. هذه المرة لمحت بريقًا في عينيه لم تره من قبل. سألته وقد شعرت بارتعاش من جراء نظراته تلك:
– لكنك لا تراني هكذا؟
– ليس دائمًا. أنا شخصيًا أتمتع بما تقدمه النساء من مميزات ولكنني

لا أهتم بنظرية تكافؤ الجنسين. أجابته «ساندي» وقد شعرت بأنها هزمت في جولتها معه:
– هذا واضح. ابتسم وهو يمشي نحو المدفأة في طريقه إلى خارج المكتبة. سألته وهي تتبعه:
– هل أستطيع أن أتكلم معك بشأن «ديرميد»؟ استدار بسرعة وأجبرها على التوقف، لأنها كانت ستصطدم به. سألها بتهكم:
– هل هذا الموضوع من المصالح المشتركة؟ ماذا عن «ديرميد»؟ بدأت «ساندي» ترتعش قليلا بعد أن وجدت نفسها قريبة جدًا منه، خطت خطوة إلى الوراء.
– أرجوك لا تسيء الظن به لسوء تصرفه على الغداء اليوم. لقد اختلط عليه الأمر. إنه لا يجد فرقًا بينك وبين والده مما جعله مشوشًا.
– لماذا؟
– إنك تشبه والده كثيرًا في الشكل، ولكنك لا تتصرف معه على هذا الأساس، أي كوالده. طوى ذراعيه على صدره. ضاقت عيناه السوداوان وهو يفكر قائلا:
– معقول. وافقها ثم ابتسم بعبث. رأت الشبه بينه وبين صورة والدته على المكتب.
– إنه ليس الشخص الوحيد الذي يخلط بيني وبين «كروفورد» للشبه الكبير بيننا. كنا نلعب هذه اللعبة مرارًا. اختفت البسمة وحل محلها العبوس.
– هل طلبت منك «مرتا» أن تتكلمي معي بشأنه، حتى لا أضربه؟
– كلا، إنها مهمومة بشأن نوبات غضبه. هي تعرف أنه يحتاج إلى أب... توقفت «ساندي» عن متابعة كلامها بعد أن رمقها بنظرة شك. ثم أردفت قائلة:
– هي ترغب في أن يتربى هنا ويذهب إلى المدرسة التي درست فيها أنت و «كروفورد». زوجها لم يترك أي مال. لها راتب تقاعدي ورثته عن والديها ولكنه لا يكفي لسد مصاريف تعليمه. حدّق إليها كأنه يفكر ويزن ما قالته في عقله. ثم سألها ببرود:
– هل أنت واثقة بأن هذا كل ما ترغب فيه «مرتا»؟

– نعم، تذكرت حوارها مع ابنة خالها وحرف (ل) وفكرة زواجها مرّة ثانية وأكملت:

– لا... أنا لست واثقة.

– ظننت ذلك. هل لديك فكرة... أين هي هذا المساء؟

– قالت إنها مدعوّة للسهرة. ذهبت لتلعب الجولف مع آل «إيرفنز» في «كيركتون» بعد الظهر.

– فهمت الآن، لماذا طلبت منك الحضور إلى هنا لمساعدتها على رعاية «ديرميد». لا أنا ولا «جوني» نرضى أن نرعى الصغير في غيبتها وكذلك «نان» مشغولة معظم الأوقات. بدأت أتحقق من براعة ابنة خالك في التخطيط البعيد المدى. لديها خطط محكمة. أعتقد أن والدي كان يرحب بها. سأتركك لتكملي بحثك عن المخطوطات التاريخية وسأذهب أنا إلى حساباتي لأوازنها. أتمنى لك التوفيق في حملة التفتيش. أعلميني رأيك فيها إذا وجدتها.

عادت «ساندي» إلى المكتب لتفتش في جواريره. هناك ثلاثة جوارير محشوة بالملفات والأوراق المغلفة وقد كتب فوقها بخط مرتب. صحيح أن «كافن» كان قد اعتزل الناس وأكثر من الشراب في آخر أيامه، إلا أنه ظل إنسانًا خلاقًا مبدعًا وبقي نظاميًا لنهاية أيامه. كل ملف عليه عنوان وأرقام متسلسلة. أول ملف أخرجته كان يحتوي على مقدمة للتاريخ. زاد حماس «ساندي» وأخذت أول ملف وصعدت به إلى غرفتها. بدأت تقرأ عن جذور المستوطنين الأول في «دانكريغان»...

في اليوم التالي عادت «نان» إلى عملها المعتاد في تدبير المنزل. بقت «مرتا» نائمة صباحًا بعد أن تأخرت في سهرتها. ذهبت «ساندي» مع «ديرميد» إلى الشاطئ قبل الظهر وعادت وقت الغداء. صعدت «ساندي» مع «ديرميد» بعد الغداء إلى غرفتها لتقرأ المزيد مما كتبه «كافن». وضعت «ديرميد» في سريره لينام بعد الطعام. دخلت غرفتها ولكنها لم تنعم بالهدوء، لأن «مرتا» دخلت تشرح لها ما تمتعت به في سهرتها في نادي الجولف.

– حزري من حضر إلى النادي عند وصولي؟

– لا أعرف.

– «بيل لندسي». تمدّدت «مرتا» على سرير «ساندي» منبطحة وجهها إلى

أسفل ورجلاها تتأرجحان في الفضاء وهي تقضم تفاحة.

– لأختصر لك القصة، دعاني «بيل» للعشاء، وبعد ذلك أخذني إلى «بروكفيلد» حيث منزله قرب الشاطئ. كم هو فخم وأفضل بكثير من هذا المنزل!

– هل رافقته أخته «هيلين» للعشاء؟

– لا، التقيتها في المنزل وتصرفت أحسن تصرف أمام والدتها. ضحكت «مرتا» ثم أكملت:

– هي ودودة للغاية، لكنها تكلّمت كلامًا غريبًا يا «ساندي». قالت إني سعيدة الحظ، لأنني التقيت الأخوة «كالدويل» كل على حدّة. ما رأيك في قولها؟

– ربما كانت تعرفهم في أول عهدها بالشباب وقد اختلط عليها الشبه بينهما مثل الكثيرين. كنت أتحدث البارحة مع «ليماند». أخبرته بأن «ديرميد» يختلط عليه الأمر، لأنه يشبه والده «كروفورد» وتصرفاته تختلف عنه. أخبرني بأنهما كانا يلعبان هذه اللعبة... كان كل منهما يدّعي أنه الآخر ويتمكنان من خداع الناس. أليس هذا ما يفعله التوائم في أكثر الأحيان؟

– أظن ذلك. لقد سألتني بعد ذلك عما إذا ما كنت متأكدة أنني تزوجت «كروفورد» وليس «ليماند»... شعرت كأنها سدّدت إليّ ضربة خفيفة. ما زلت أشعر بأنها لا تحبني، لأنني من آل «كالدويل»... ماذا تقرئين؟

– مخطوطات تاريخ «دانكريغان» التي كتبها «كافن كالدويل». إنه ممتع. هل تعرفين أن الحصن يعود تاريخه إلى العصور المظلمة (476 – 1000) ب م، أي العصور الوسطى. هي آخر معاقل المقاومة ضد «الأنجلو ساكسون» في القرن السادس؟ ربما بناها الملك «أوربان» الذي حكم مملكة تمتد من جنوب «كاليزال» إلى «ديمفريز» ثم «غاللوي» حتى «سترانرار». تمتمت «مرتا» وهي تتساءل:

– متى؟

– في أيام الملك «آرثر» الأسطوري. بعض هذه القصص عن الملك «أوربان» تشير إلى مقاومته «الأنجلو ساكسون» وربما قد أضيفت إلى الخرافات.

– صحيح، هل تقصدين الملك «آرثر» في التمثيلية الغنائية «كاميلوت»؟

– نعم. هو الملك نفسه. كان «كافن» يحاول أن يبرهن على صدق نظريته

بالتنقيب عن أدلة. وقد وجد بعض المصنوعات التي تثبت نظريته ومنها دبوس للزينة من النقش السلتي وكذلك كتلة معدنية مصبوبة معدة لصنع أشكال مختلفة. لكنني لا أعرف، أين وضعها؟

– اسألي «نان». ربما تعرف. ثم أضافت:

– إنه بربري متوحش. لا أحد يستطيع العيش معه. هل سمعت ما حل بزوجته؟

– نعم، أخبرني «جوني» الليلة الماضية بالقصة الحزينة. هل تظنين أنها حقيقية وأنها كانت في سبيلها إلى الهرب مع رجل آخر؟

– بالطبع حقيقية، لقد أخبرني زوجي «كروفورد» بها.

– هل قال لك سبب هروبها؟

– لا، لكنني حزرت. لابد من أنها أحبت رجلاً آخر... هذا يحصل دائمًا يا غبية.

– أعتقد أنه يحصل. ولكنها مسؤولة عمّا حل بالعائلة من بعدها. كانت تكلم نفسها أكثر مما كانت تكلم «مرتا».

– ماذا تقصدين؟ استدارت «مرتا» في الفراش واستوت على ظهرها. تمطت كأنها قطة مدللة.

– الأسباب والنتائج. هذا هو علم التاريخ. لو لم تغرق «فيليدا». وهي تبحر مع رجل آخر في نزهة، لما اعتزل زوجها عن الناس وأكثر من الشراب وبالتالي أصبح عصبي المزاج واختلف مع ولديه وترك بالتالي هذا المنزل يفسد ويبلى بالتدريج.

– هذا فظيع! لو أفكر مثلك في الأسباب والنتائج لما أقدمت على أي عمل. هل تعتقدين أن زوجته مسؤولة عن خلاف العجوز مع «كروفورد» وطرده من المنزل؟

– لا أعرف بالضبط، من الممكن أن طباعه لم تكن لتسوء وكذلك من الممكن أن «ليماند» و «كروفورد» كانا قد عاشا بطريقة مختلفة لو بقيا في رعاية والدتهما.

تمتمت «مرتا»:

– ربما. فسألت «ساندي»:

– هل تعرفين أسباب الخلاف؟

– بشكل مبهم غامض. كان «كروفورد» دائمًا يدافع عن نفسه ويردّد أنه مظلوم. يقول إن والده اكتشف أنه أساء التصرف في سنين سابقة قبل أن يترك «ليماند» المنزل ليعمل في مزارع الغير. غضب والده منه وطرده. أشعر بأن «ليماند» له علاقة بالمسألة... القصة قديمة وقد حصلت منذ اثنتي عشرة سنة تقريبًا. الأب توفي وكذلك «كروفورد»... بقي من آل «كالدويل» الآن فقط «ليماند» و «ديرميد». هل أخبرك «ليماند» الليلة الماضية بمستقبل «ديرميد»؟

– ليس قبل أن أفتح له الموضوع بنفسي. أخبرته بما ترغبين لابنك من فرص جيدة من أجل تعليمه، كذلك أخبرته بأنك لا تملكين مالا لتعليمه بنفسك.

– جيد، أكملي يا «ساندي»، ماذا كان جوابه؟ هل قال إنه مستعد لتحمّل مصاريف تعليم «ديرميد»؟

– لا، سألني فقط عما إذا كنت واثقة بأنك لا ترغبين في شيء آخر، وأجبته أنني لست واثقة. ثم نظرت إليها عاتبة:

– لو تبحثين معه مستقبل «ديرميد» صراحة. أنا لن أبقى هنا طويلا بعد. لقد دعاني للبقاء أسبوعين فقط وينتهي هذا الموعد الأربعاء المقبل.

– عليك أن تبقي أكثر. يمكنك ذلك. لن يمانع على ما أعتقد. قالت «ساندي» بحدة:

– أنا أمانع. تكدرت «مرتا» ونفرت الدموع من عينيها. شعرت «ساندي» بوخز في الضمير وبأنها غير مخلصة. أصرت «ساندي» على أن تعرف فقالت:

– ربما، لو يعرف ما ترغبين لتوصل إلى قرار بهذا الشأن! «مرتا»، هل تعليم ابنك هو كل ما ترغبين فيه من مساعدة؟ كانت «مرتا» شاردة بأفكارها بعيدًا كأنها تداعب سرًا جميلاً بداخلها.

– أرجوك لا تسألي. لن أفصح عن رغبتي الآن. أعتقد إن تكلمت عن رغبتي لأي إنسان فسوف لا أنال ما أرغب وأنا لا أريد أن أفشل. هذا شعوري الأكيد. تنهدت «ساندي» وقالت:

– نعم، أعرف هذا الشعور... لكن؟

– تحملي معي أرجوك. أشكرك لبحثك موضوع «ديرميد» مع «ليماند». أعتقد أنك مصيبة بأن سلوك «فيليدا» قد أثّر كثيرًا في التوءم. ربما من أجل ذلك لا يثق التوءم بالنساء. تدل شهرتهما أنهما يهربان من الفتيات بعد أن يقعن

في حبهما.

– هل هذا صحيح؟

– نعم، صحيح، أنا أعرف أن «كروفورد» كان كذلك قبل أن يلتقيني. قامت «مرتا» ومشت نحو الباب وهي تهز ردفيها.

– كيف تمكنت من منعه من تركك؟

– أنت تحملين شهادة جامعية ولكنك تجهلين أمور الحياة الأساسية. سوف لا أخبرك كيف، ولكنني نجحت في مهمتي، أليس كذلك؟ علقت «ساندي» هازئة:

– لكنك لم تنجحي مع أخيه! ضحكت «مرتا» ضحكتها التي تشبه الشمس المشرقة ثم قالت:

– لا، لم أفلح بعد ولكن...

– سمعت صوت «ديرميد». لقد استفاق. لنذهب إلى الشاطئ. الحمد لله ما زال الطقس جيدًا. بعد غياب الشمس وقد بدا القمر يتوسط السماء، جلست «ساندي» في سيارة «رون كارسن» السبور في طريقها إلى «كريغان». كان «جوني» برفقتهما. أوقف «رون» سيارته بين الطريق العام والشاطئ. صعدوا إلى الفندق للقاء بعض الرفاق. لقد رضيت «نان» بأن ترعى «ديرميد» في غيبتها. قاعة الفندق مليئة وكذلك غرفة الشراب. جماعات يجلسون حول طاولات يحتسون الشراب ويتحدثون. وسع مكان للقادمين وسط مجموعة من الشباب والشابات يجلسون حول طاولة. تعرفت «ساندي» إليهم وطلبوا لها بعض الشراب. همس «جوني» في أذنها:

– انظري من يجلس في الزاوية. كانت «مرتا» تجلس ضمن مجموعة ومن بينهم «بيل لندسي».

– قالت لي إنها قادمة لتحضر السباق.

– أعتقد أن رابح السباق هو «بيل لندسي». نظر «جوني» إلى «رون» مخاطبًا:

– من هذه المرأة التي تجلس قرب نائب مدير النادي؟

– إنها «هيلين» شقيقته. هي... توقف «رون» عن الكلام بعد أن وكزه «جوني» في كتفه إشارة إليه ليصمت. ثم قدّم إليه المزيد من الشراب. وبعد قليل أكمل

«رون» كلامه في موضوع آخر قائلا:

– هل عرفت الساقية لهذه الليلة؟ إنها صديقتك الشقراء. ربما ستبقى للرقص بعد دوام عملها. قال «جوني» وهو مأخوذ بالنظر إلى الساقية الشقراء:

– أتمنى ذلك. قرر الجميع الانتقال إلى قاعة القرية للرقص. خاطب «رون» «جوني» قائلا:

– لقد انتهيت من الساقية الشقراء هذه الليلة. قريبك «ليماند» قد سبقك إليها. نظرت «ساندي» إلى البار. فرأت «ليماند» يميل إلى الشقراء يكلمها. كان يرتدي سترته الرمادية، التي ارتداها يوم استقبل «ساندي» في «ديمفريز»، فوق بنطلون أسود وكنزة سوداء قبتها عالية. بدا هندامه الرسمي المميز في غير مكانه المناسب وسط المصطافين في ثيابهم المختلفة الألوان. فكرت «ساندي» في الفارس الأسود في السباق.

– أعرف سبب حضوره. قال «جوني» ذلك وهو ينظر إلى الزاوية التي جلست إليها «مرتا» مع «بيل لندسي». ثم أردف:

– تستغرب ما يمكن أن تفعله المنافسة؟

كانت «مرتا» تتحدّث بروح معنوية عالية عن بعض القصص. وضعها وسط المجموعة مخزٍ في نظر «ليماند» ويحط من قدره وقدر عائلته. إلى الجهة الأخرى جلستْ «هيلين» وعيناها الزرقاوان على «ليماند» وقد ابيضّ وجهها كأنها ترى شبحًا أمامها. أشاحت «ساندي» بنظرها عن «هيلين» ولكنها اكتشفت أن «ليماند» يراقبها هي. حيّته باستحياء. خجلت من نفسها؛ لأن حمرة الخجل قد تسربت إلى وجهها دون إرادتها. هزّ «ليماند» رأسه يحييها. وقف «رون» ومجموعة الشباب عندئذ لمغادرة الفندق في طريقهم إلى قاعة الرقص الكبرى في القرية.

وصلت المجموعة إلى القاعة. كانت أصوات الموسيقى الصاخبة تسمع من الخارج. دخلوا ونزلوا فورًا إلى حلبة الرقص على أنغام الروك. الرقص وسيلة تعبير وهروب. يساعد على الاسترخاء والتخلص من التشنجات العضلية. ينسي الهموم، ويساعد على حل المشاكل... توقفت الموسيقى. جلست «ساندي» على كرسي قرب الحائط للاستراحة. جلس «رون» قربها بينما وقف «جوني» أمامهما. مال «رون» إلى الأمام يخاطب «جوني» وهو يبتسم

مكشرًا:

– لا تنظر إلى المدخل. حضرت الشقراء برفقة «ليماند».

– لا يضيّع وقته سدى. سخر «رون» وهو ينظر إلى «جوني»:

– يمكنك أن تطلب منه أن يعرفك إليها. سأله «جوني» باهتمام بالغ:

– كيف؟

– هناك رقصة الفالس التي ستعزف عاجلاً أم آجلاً. يحق لك أن تقطع على أي اثنين وتراقص مرافقته بدلاً منه. كان «رون» صادقًا. توقفت موسيقى الروك واستبدلت الفرقة بأخرى تعزف موسيقى اسكتلندية ريفية. كانت أول رقصة أعلنت الفرقة عنها رقصة الفالس. كل من ليس له رفيقة لتراقصه، يمكنه أن يقطع على أي راقصين ويطلب التبادل مع الراقص.

– أبشر يا عزيزي. ها هي فرصتك الذهبية. أعلن «رون» وهو يضحك.

– تعالي يا «ساندي» راقصيني. كان «رون» يرقص وهو يعلق على كل ما يراه حوله في حلبة الرقص.

– لقد قطع «جوني» على «ليماند» رقصته. إنه يراقص الآن الساقية الشقراء. أظنك سمعت عن السلوك الغريب الذي مارسه «ليماند» وشقيقه التوءم «كروفورد» حين كانا يحضران إلى قاعة الرقص في السنين السابقة. قالت وهي تلهث من كثرة اللف والدوران:

– كلا. لم أسمع. قل لي يا «رون». أخبرني.

– شقيقتي «جين» متزوجة الآن وعندها ولدان، قالت لي إنها ذهبت مرّة للرقص بصحبة «ليماند» وعادت إلى المنزل بصحبة «كروفورد». لكنها لم تعرف أنهما تبادلاها إلاّ بعد أسبوع حين أخبرتها الفتاة التي ذهبت عائدة بصحبة «ليماند» بالقصة. كانا يفعلان مثل هذه الحيل دائمًا. كان لابد لهما من أن يقعا في مشكلة يومًا ما.

– أية مشكلة ممكن أن يقعا فيها؟

– اتهم أحدهما بأنه عبث مع إحدى الفتيات بينما شقيقه التوءم هو الذي قام بذلك... أتفهمين ما أعني؟ عرف والدهما بالأمر...

– عن إذنك. هل لي أن أقطع عليك رقصتك يا «رون»؟ كان صوت «ليماند» باردًا دون ابتسامة. لقد قطع الحديث عنها كذلك. لقد حصل اليوم ما حصل

في المكتبة حين كان «جوني» يخبرها بـ «فيليدا». دائمًا «ليماند» يقطع عليها حبل المعرفة. كانت «ساندي» تفكر في نفسها: «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها». أجابه «رون» وهو يضحك من الألم.

– سأراك فيما بعد يا «ساندي». دار يفتش عن فتيات من معارفه كن يجلسن يسترحن ليكمل ثرثرته معهن. كانت «ساندي» ترقص بسهولة مع «رون». أما الآن فالأمر يختلف. لقد وضع «ليماند» يده على خصرها وأمسك بيدها في حزم شديد. كانت يده باردة قاسية. ارتعشت بين يديه وتشنجت. شعرت بأنها لاتعرف الرقص.

– تبدين غير مرتاحة.

– أشعر بدفء هنا من كثرة الازدحام.

– لنذهب إلى الخارج نتمشى ونشم هواءً لطيفًا. قادها إلى مقعدها حيث أخذت سترتها الصوفية.

تردّدت «ساندي» قبل أن تخرج. كانت تفتش عن «جوني» الذي كان مشغولاً كليًا بالشقراء التي ما يزال يراقصها. وقع نظرها بعد ذلك على «رون» وقد انشغل بفتاة حسناء في الثامنة عشرة من عمرها. شعرها أسود مجعد. نظرت «ساندي» إلى «ليماند» الذي كان يراقبها كأنه يقرأ أفكارها على الطريقة الغجرية.

– كل منهما يتمتع برفيقته الجديدة أكثر بكثير من رفقتك أنت. اعترضت قائلة:

– هذا غير لائق بك أن تقوله لي. ثم قالت في نفسها: «ماذا يعرف عني وعن جاذبيتي وسط معارفي ورفاقي؟» تذكرت أن رفقتها ممتعة في قاعة المحاضرات أو المناقشات أو الرحلات التعليمية. أما في الحفلات الراقصة فكان رفاقها يفضلون عليها الفتيات الأكثر جمالاً والعابثات المستهترات.

– عنيت بقولي مديحًا، ليس إلا. هما يهتمان بالشكل الخارجي وليس بالمضمون الداخلي للفتاة. اهتمامهما ينصب على ما تكشف عنه المرأة وليس على ما في داخلها. أنت رصينة وبريئة ولن تروقي لهما الليلة. كل ما يبغيانه الليلة هو المتعة.

– ما أدراك أن ذلك بغيتهما؟ هز كتفيه وضحك ضحكة قصيرة جذابة

وقال:
– أعرف ذلك من خبرتي السابقة منذ اثنتي عشرة سنة عندما كنت أحضر إلى قاعة الرقص لهذه الأسباب... تعالي نتمشى معًا في ضوء القمر ونبحث في المصالح المشتركة. شعرت بأنه يسخر منها. نظرت إليه. أعاد إليها النظر دون أي تعبير. قالت:
– ما هي المصالح المشتركة بيننا؟ خالجها شعور غريب هو الشعور نفسه الذي تحسه كلما التقته شعور ينبهها إلى خطر المشي معه في ضوء القمر.
– مستقبل «ديرميد»، وسعادة «مرتا»... لدي بعض الأسئلة ربما تعرفين الإجابة عنها. أريد نصيحتك أيضًا في مسألة أخرى. هل تتمشين؟

- 4 -

حملت «ساندي» شالها الصوفي ولفت به كتفيها وذهبت برفقة «ليماند». أليست هي الرسول بينه وبين «مرتا»، وهذه حجته ليحظى بها لنفسه فترة وجيزة؟ خرجا من القاعة المزدحمة بالناس والضجيج، إلى الجو اللطيف في هدأة الليل تحت ضوء القمر، تمشيا معًا في ممر مرصوف بحجارة الجرانيت تغطيها أشجار الحور العملاقة. كانت المنازل القريبة المطلية باللون الأبيض تظهر كالأشباح وسط العتمة. النسمات تداعب مياه المصب فتتراقص جذلة، وتظهر التلال المرتفعة خلف المصب تعكس ظلالها المستديرة على صفحة السماء المنارة بضوء القمر.
ليلة مميزة للعشاق، كانت «ساندي» تفكر حالمة... أعادها إلى صوابها الرجل الذي يمشي قربها حين سألها ضاحكًا:
– منذ متى تعرف «مرتا» «بيل لندسي»؟
إذن، «جوني» على صواب، إن المنافسة بينه وبين «بيل» هي التي حملته على الخروج من عزلته. لهذا السبب حضر «ليماند» الليلة إلى «كريغان» يتتبع أخبار «مرتا». ربما سمع إشاعة مفادها أن «مرتا» تخرج مع «بيل» وحضر بنفسه يتقصى الحقيقة.

– لا أعرف، تعرفت إليه قبل حضوري إلى «دانكريغان». كانت برفقة «جوني» في نادي «اليخوت» حيث تعرفت إليه. ثم إن «ديرميد» يلعب يوميًا مع أولاد «بيل» على الشاطئ. وأحيانًا يحضر هو أيضًا إلى الشاطئ بعد أن يفرغ من عمله. أحسّت بغضبه يتصاعد من تأثير حديثها، فانبرت تدافع عن ابنة خالها تقول:
– لا تهتم بالأمر. «مرتا» تحب أن تحيط نفسها بالعديد من الأصدقاء. إنها اجتماعية وتحب الاختلاط مع الناس...
– هذا ما لاحظته اليوم، حين رأيتها تذهب برفقة «بيل» في سيارته، فوجئت لأنها وجدت أصدقاء من تلك الضاحية؟
– أمن أجل الخصومة؟
– أية خصومة؟
– أخبرتني «نان» بأن هناك خصومة عاشت بين عائلتي «كالدويل» و «لندسي»، في غابر الأزمان. العائلتان تخاصمتا على الأرض أو القطعان... اليوم انتهت الخصومة بالتأكيد.
– كان عليّ أن أفطن إلى أنك ستكشفين الستار عن القصص البربرية عند جدودي. قال ذلك وهو يضحك. ثم أكمل:
– الآن، نحن لا نتخاصم من أجل الأرض أو القطعان. لقد تمدّنا.
– كيف ذلك؟
– مثلاً، «هيلين لندسي» أحبت شقيقي «كروفورد» منذ سنين قليلة. العلاقة لم ترق لوالدتها فقتلتها في المهد.
– آوه! وهل رغبت في الزواج به؟ سألت «ساندي» تستوضح الأمر، لأنه يجلو بعض الغموض لديها. ثم قالت:
– لهذا السبب تصرفت «هيلين» بغرابة عندما قدّم «بيل» أخته إلى «مرتا» لقد ظنت «هيلين» أن «مرتا» نجحت حيث فشلت هي. ثم يوم رأتك «هيلين» في النادي كانت تنظر إليك كأنها ترى شبحًا.
– صحيح! لم ألاحظ. كانت دائمًا تجد صعوبة في التفريق بين أخي وبيني.
– مثل فتيات كثيرات غيرها، إذا كان ما سمعته الليلة صحيحًا. كانت تضحك منه لتضايقه.

– لقد سمعت قصة «جين» شقيقة «رون كارسن» بالتأكيد. حرام. «جين» لم ولن تغفر لنا أبدًا.

– الحقيقة. إنه عمل غير مهذب. كيف تقومان بحيل وخدع مثل تلك؟

– كنا نقصد المزاح وليس الضرر. ثم قال بهدوء:

– وعندما كبرنا كانت لهذه اللعبة نتائج وخيمة دوت كقرع الطبول.

– لقد نلت أنت اللوم على شيء بغيض فعله شقيقك التوءم «كروفورد». توقف «ليماند» عن المشي واستدار ليواجهها. أمسك بذراعيها وهزها. نظر إلى وجهها مستطلعًا، كان ضوء القمر يغمر وجهها وقد بدا الخوف على محياها. سألها:

– من أخبرك؟ قالت «ساندي» وهي ترتعش:

– لا أحد. «رون» سمع إشاعة تقول إن أحدكما كان ملامًا على شيء اقترفه الآخر. أعتقد أنك أنت البريء.

– وكيف توصلت إلى هذا الاستنتاج؟ قال وقد حاول أن يكبح جماح غضبه. اختفى صوته لكن يده ما زالت ممسكة بذراعها بعنف مما يدل على شدّة غضبه وانفعاله.

– جمعت اثنين مع اثنين. حاولت أن تفلت من قبضته ولكنها لم تفلح فقالت:

– أنت... أنت تؤلمني. اترك ذراعي أرجوك؟ تركها في الحال. كانت تسمع أنفاسه تخرج بصعوبة من بين أسنانه وهو يتنهد بغضب.

– هل يمكنك أن تخبريني، ماذا تعنين؟

– إن ما سمعته عن «كروفورد» من زوجته «مرتا»، ثم ما سمعته من «نان»، وكذلك ما عرفته عنك في خلال إقامتي في منزلك... أدار رأسه بسرعة نحوها. ذهل. تسمر في مكانه. ثم قال:

– عليّ أن أكون حذرًا فيما أعمل أو أقول في خلال إقامتك في «دانكريغان». لم أفطن إلى أن متخصصة في علم التاريخ يمكنها أن تكون مخبرة. إياك أن تظني أن باستطاعتك فتح خزانة وإخراج الهياكل العظمية للعائلة من داخلها. إياك أن تجمعي اثنين مع اثنين مرّة ثانية. المنطقة مليئة بالثرثارين. عادة يكون جمع اثنين مع اثنين خمسة بدلاً من أربعة هنا. بهذه العمليات

الحسابية تمكن الناس من إزعاج والدي وسرقة راحة باله. أرجو ألا تقومي باقتناص المعلومات عني أو عن شقيقي «كروفورد» من خلال إقامتك هنا. هل فهمت جيدًا ما أقصده؟ وقفت «ساندي» مسمّرة. شعرت بالغضب يتملكها. لقد عرّضت نفسها لانتقاداته اللاذعة دون أن تدري. نسيت كبرياء آل «كالدويل» التي لا تهزم. أجابته:

– نعم، فهمت ما تقصد. إنني لم أبحث عن معلومات قط، ليس بيدي أن أفعل أي شيء حيال كلام الناس. الجميع يتكلمون عنك وعن عائلتك أمامي.

– هذا صحيح. يمكنك أن تكفي عن استنتاجاتك مما تسمعين. ربما معرفة الماضي ضرورية لفهم الحاضر، لكنني أفضل أن أغلق الباب على الماضي. كان عليّ أن أغلق هذا الباب لأنقذ «دانكريغان». عملت جهدي لتصبح مزرعة منتجة مزدهرة. همّي أن يأتي الجيل الجديد من آل «كالدويل» يرث أكثر من منزل متهدم وحصن متداع وحقول تغطيها الأعشاب اليابسة وحفنة من الديون. الحزن والبكاء على الماضي لا يفيد والعزلة عن الناس، كما فعل والدي، لم تسفر عن أية نتيجة.

– أنا لا أوافقك الرأي. لقد أعطى والدك تاريخًا. ربما تفضل أن تحرق الخطوطات مع الكتب والستائر والأثاث... أوه «ليماند»، أعرف ما تكابد اليوم، لكن، ألا تعتقد أنك تأثرت بالماضي فهو الذي جعلك بهذا التفكير، رجل كادح، يعمل لبناء المستقبل بشكل أفضل. لقد تعلمت من أخطاء والدك. كان يستمع إليها باهتمام. كلماتها تلاقي أذنًا صاغية. وبعد فترة صمت قصيرة قال:

– إنك تهتمين بما أحاول القيام به.

– بالطبع، بالطبع أهتم. ران صمت آخر. ثم سمعته يضحك. ويقول:

– إنها المرة الأولى في حياتي، أصطحب معي فتاة نتمشى تحت ضوء القمر وأمضى الوقت أناقشها!

– كان لا لزوم للنقاش لو لم تغضب أنت من استنتاجي الصحيح، إنك أخذت كل اللوم على أخطاء ارتكبها أخوك. أنا لا أستغرب أنك كنت دائمًا تتستر على أخطائه وتفخر بعملك هذا. لقد أزعجك كثيرًا أن أحدًا اكتشف الحقيقة التي كنت وما زلت تخفيها عن الجميع.

– كفى، كفى أرجوك. كان مرهقًا يحاول أن يمسك بذراعها ليجعلها تقف.
– ألا ترين أنك تحطمين اعتقادًا راسخًا لديَّ بأنني كنت على صواب في تغطيتي لأخطاء أخي وسكوتي حين كان اللوم يقع عليَّ؟
– هذا فظيع! كيف يلومونك أنت على أفعال سيئة...؟
– ماذا تقصدين؟ كان يحاول أن يسخر:
– كلانا من طينة واحدة. لم يكن أحد يفرق بيننا.
– أعمالكما تساعد على التفريق بينكما. خبرتك في الحياة تختلف عن خبرته. في السنوات الماضية، هناك أمثلة عديدة تساعد على التفريق بينكما. إنكما تختلفان كليًا في طباعكما. تمنت «ساندي» أن تسأله، ما الذي فعله «كروفورد» واتهم هو به؟ ولكنها خافت أن يتهمها من جديد باقتناص المعلومات عنه. سكتت. ربما. كان ما يزال ممسكًا بذراعها. تعجبت. إنه واقف لا يتحرك. إنه يمعن النظر إليها كأنه يراها للمرة الأولى. أكمل:
– ولا واحد منا كان يمكن أن يضيع فرصة سانحة مثل هذه... تحرك من جموده. انقضّ كالنسر على فريسته. عانقها بشدّة وكاد يخنقها. حرك ذراعه ليحيط بها. تراجعت إلى الوراء وركضت في اتجاه النور والموسيقى.
كانت تركض ويدها على فمها. كاد قلبها أن ينفطر، لماذا تركض؟ إنه شعور فطري، الهرب، قبل فوات الأوان، من شخص يستطيع أن ينتصر على قلبها وجسمها معًا. شخص أصبح مهمًا لديها أكثر من أي إنسان في الوجود، أهم إليها من نفسها. وقفت خارج قاعد الرقص تهدئ من روعها. رتبت شعرها بيديها. كانت لا تريد «جوني» أو «رون» أن يلحظا عليها أي تغيير في شكلها الخارجي، لهما عينان ثاقبتان وبالتالي يؤولان أشياء عنها. نظرت حولها لترى ما إذا كان «ليماند» قد لحق بها. ثم دخلت قاعة الرقص وكلها أمل في أن تجد «جوني» أو «رون» لتحتمي بهما حين يعود «ليماند» إلى القاعة. كان من الصعب العثور عليهما وسط ازدحام الراقصين. التقت «ساندي» بفتاة كانت ضمن المجموعة التي تعرفت إليها. مشت إليها وسألتها بأعلى صوتها:
– أين «جوني» و «رون»؟
– خرجا. ذهبا إلى «كيركتون» منذ ربع ساعة. فتّشا عنك ولم يجداك. اعتقد

«جوني» أنك ذهبت بصحبة «ليماند»، قريبه. طلب منّي أن أعلمك أنه غادر.
– شكرًا جزيلاً. مشت «ساندي» إلى الخارج مرة ثانية، حيث ضوء القمر. إذن، لم يلحق بها «ليماند». لاتراه. احتارت، ماذا تفعل؟ يمكنها العودة إلى «دانكريغان» لوحدها. يمكنها المشي بمحاذاة الطريق العام ثم عبر التلال في الطرق القديمة. إنها لا تعرف طريق التلال، رحلة شاعرية في ليلة مقمرة. مشت وحدها لنهاية القرية. مرّت بطريقها على الفندق. لقد أطفأ أنواره ويسوده الظلام والهدوء. مرّت بعد ذلك بنادي «اليخوت» وبقية متاجر القرية. انتهت رحلتها على الطريق العام وعليها أن تمشي عبر التلال.
بدأ القمر رحلته باتجاه الغرب ومن مركز القمر في السماء قررت أن «دانكريغان» تقع إلى الشرق. كان الممر الذي تسير فيه باتجاه الجنوب. ظنت أنه ربما ينعطف بعد ذلك شرقًا. مشت. رائحة البحر تصل إلى أنفها، والنسيم العليل يداعب شعرها ووجهها، والقمر يعكس أشعته الفضية على محياها. هدوء كبير في مياه المصب، كأن المياه نائمة. ضاق الممر، أصبح المصب إلى يمينها، أحست بالأعشاب تلفها. شجيرات شوكية، ربما هي أشجار ورد وشوكها كبير، كانت سترتها الصوفية تعلق بالأشواك. اختفى القمر خلف الشجيرات. لم تعد تدري أين طريقها. خافت. شعرت بقشعريرة تسري في جسمها وجفاف في حلقها. شيء خلفها يخشخش. غصن شجرة التوى ثم انكسر. ما الذي كسره؟ التفتت خلفها. رأت شبحًا يقترب منها. صرخت:
– من هناك؟
– «ساندي»؟ إلى أين تذهبين؟ كان صوت «ليماند». اقترب الشبح وتمثل بشرًا، عرفته في الحال. انتابتها رعشة قوية سألها:
– ما الأمر؟ قالت وأسنانها تصطك:
– أخفتني! لم أسمعك تقترب. بقيت ترتجف... مشى إليها وأمسك بذراعيها. صرخت:
– لا تلمسني. لم يأبه لاعتراضها. جذبها إليه بقوة وضمها إلى صدره وقال:
– لا رغبة لي في أن أخيفك. كنت في الطريق المؤدية إلى المنزل. رأيتك تأخذين الطريق المؤدية إلى مصب النهر. اهدئي. لا شيء يخيف هنا... الدفء في

جسده وقبضته القوية تحتويها، وضحكته المكتومة في صوته وهو يهدئ من روعها، كل هذه اجتمعت لتعطيها الطمأنينة، بالتدريج هدأ روعها وسكنت ولم تعد ترتجف.

– سأرافقك إلى المنزل في «دانكريغان». لقد أخذت طريقًا خطأ. هذه الطريق توصلك إلى الرمال. الآن وقت المد والرمال لن ترحمك. كانت «ساندي» تتمتع براحة وهو يضمها إليه، تحس بدفء جسمه وقوته ولكنها تحركت تحاول الإفلات منه. وعلى الفور تركها وقال:

– هل أنت أحسن؟

– نعم، شكرًا. لا أعرف ما الذي حصل لي؟ عادة لا أخاف!

– أنت لست معتادة أن تكوني وحدك في الريف وسط الليل. ثم ربما ضوء القمر جعل خيالك يجنح بعيدًا وتخيلاتك صورت لك أشياء غريبة.

– صحيح، كيف عرفت؟

– إنك لست الوحيدة التي حصل لها ما حصل لك في ضوء القمر. «نان» تقول إن غريزة البقاء تنبهك عند اقتراب الخطر إليك. هذا صحيح. الرمال خطيرة هنا، وربما ابتلعتك!

– رمال متحركة! كادت تصرخ من الخوف. لقد وقف شعر رأسها من الفزع.

– هل تستطيعين العودة معي في الطريق الصحيحة؟

– نعم، نعم شكرًا. هذه هي المرّة الثانية التي تنقذني فيها من الخطر.

– صحيح؟

– نعم، هل تذكر يوم أقفلت باب الحصن عليّ؟

– تذكرت. مشيا إلى القرية معًا. قال «ليماند» يحدثها:

– أعتقد أن «جوني» و «رون» قد تركا قاعة الرقص حين عدت إليها.

– نعم، ذهبا إلى «كيركتون»، ولهذا السبب حاولت العودة وحدي.

– ليس من المستحسن أن تعودي وحدك في طريق لا تعرفينها جيدًا. كيف يمكن لفتاة مثلك، تعتمد على نفسها، مقتدرة، تتمتع بالحرية، أن تخاف بهذه السهولة، هل خفت أيضًا من عناقي؟ ألهذا ركضت؟ صوته هادئ ومتين.

– لا (كانت تكذب) لم يعجبني تصرفك ولم أرحب بفكرتك التي مفادها أن باستطاعتك عناقي متى ترغب. لماذا فعلت ذلك؟

– لقد قلت لك إنها فرصة سانحة لا تعوض. لقد حان الوقت لتجدي رجلاً يعاملك كامرأة وليس كشخص لا جنس معين له، حسب اعتقادك بنفسك، أنت ترتدين اليوم ثوبًا وهذا يليق بك أكثر من البنطلون. لقد أغضبها انتقاده، ولكنها فضلت الصمت، لأن أمامها تلة عليها صعودها. كان القمر خلفهما ينير لهما الطريق. ظلهما يمشي أمامهما.

– ما أجمل شكل القمر! كيف ينام على ضفة النهر...؟ كان «ليماند» يتلو شعرًا قد حفظه. تعجبت. ثم قال:

– لقد نسيت بقية أبياته. أنت أقرب مني إلى أيام الدراسة. هل قرأت تمثيلية «تاجر البندقية»؟ هل تذكرين بقية الأبيات؟

– نعم، قرأت التمثيلية في المدرسة وأذكر المنظر بين «جيسيكا» و «لورنزو» جيدًا عندما تقول «جيسيكا»:

«في هذا الليل.

أقسم «لورنزو» الشاب بأنه يحبها كثيرًا.

لقد سرق قلبها وروحها بوعود الإخلاص والولاء.

وليس بينها أبدًا واحد صحيح».

«شكسبير»

انتهت «ساندي» من تلاوة الشعر وضحك هو تقديرًا لها وقال:

– لقد فهمت مرادك. أنت تقولين إنك لن تنخدعي بالكلمات المعسولة ولا العناق في ضوء القمر. لا عليك. أنت في أمان. لن أقسم لك بأنني أحبك لكن يجب أن أعانقك مرة ثانية، لتعرفي بنفسك. تراجعت إلى الخلف محاولة الابتعاد عنه. تحركت حصاة صغيرة تحت كعب حذائها. اختل توازنها. كانت ستقع إلى الوراء في حفرة عليق لو لم يسارع «ليماند» ويمسك بها من خصرها.

– عملية إنقاذ رقم ثلاثة ضحك ساخرًا:

– أصبحت عادة مستحكمة. لكنك ترتعشين. لم أقل سأعانقك الآن، قلت مرّة ثانية... انتبهي إلى قدميك ونحن نمشي. لا أرغب لك في أن تلوي كاحلك.

www.rewity.com

لقد تبلبل تفكيرها. كل ما تفوه به غير معقول. عودتها مع «ليماند» في ضوء القمر شيء جديد تختبره للمرّة الأولى في حياتها. شعور جديد ضعضع كيانها وتوازنها. لقد تغيرت حتمًا. هي اليوم غيرها بالأمس. سألها فجأة كأنه ما زال يفكر فيها:

– ماذا ستفعلين بعد انتهاء عطلة الصيف؟

– سأعود للجامعة لأكمل تحصيلي العلمي.

– إذن، أنت لا تلعبين دور المثقفة لفترة ما قبل الزواج. أنت حقًا مهتمة بالعلم.

– نعم، أحب أن أعمل في دائرة التنقيب في المتحف بعد أن أنتهي من دراستي.

– أليس لديك مشروع لبناء منزل زوجي مع شخص ما، وربما أولاد؟

– ليس بعد، ليس قبل سنين وسنين. فقط حين ألتقي بالشخص المناسب.

– بالطبع، سيكون لديكما مصالح مشتركة مثل بقايا الفخار القديم، توابيت الموتى... وقد برهن لها على أن معلوماته في هذا الحقل، لا بأس بها، أفضل مما يبديه للآخرين. ثم قال:

– أظن أنك لم تلتقيه بعد؟ فكرت «ساندي» في «ديريك». في وجهه الجميل وحاجبيه المستقيمين وشعره الأشقر.

– ربما أكون قد التقيته. أود أن أتأكد ذلك مع نهاية الصيف. إنه مسافر الآن.

– بالتأكيد، أنت الآن في فترة تجربة، تقيّمين الوضع بعدها. إذا كان غيابه قد أحزنك وشعرت بفراغ فإنك تحبينه، أما إذا كان العكس فإنك لا تحبينه.

– كيف عرفت ذلك؟

– هي طريقة اتبعتها بنفسي مرّة واحدة.

– هل نفعت؟ ماذا اكتشفت؟

– إذا كانت الفتاة بعيدة عن العين فهي بالتالي بعيدة عن القلب. اكتشفت أن هناك الألوف من الأزهار الجميلة غيرها ينتظرها من يقطفها.

– وهل قطفت زهرة منها؟

– نعم، ولكن ليس لتبقى معي دائمًا!

– وهل تظن أنك ستجد زهرة لتبقى معك دائمًا؟ لم تكن «ساندي» لتجرؤ على مثل هذا السؤال الخاص لو لم تكن تحت تأثير سحر ضوء القمر.

– أعتقد أني وجدتها. ربما أقرر مع نهاية الصيف. كان يجيبها الآن بمثل جوابها له وهو يضحك ساخرًا. هل يفكر في «مرتا»؟ كيف لها أن تعرف؟ لو سألته لظن أنها تبحث من جديد عن معلومات خاصة.سألته:

– ماذا بشأن «ديرميد»؟ هل ستفعل شيئًا لأجله؟

– هذا ما كنت أرغب في التحدث به إليك. إلا أننا خرجنا عن الموضوع الرئيسي... ثم هربت... ما زلت أفكر في الموضوع. عليّ أن أعرف ماذا ترغب «مرتا» بالتفصيل؟ كان يتكلم ببطء شديد. كأنه يتسلى بها.

– لا أعتقد أن عليك الانتظار لنهاية الصيف. لماذا لا تسألها الآن...؟

– أسألها؟ استدار ليواجهها. توقفا عن السير. خلفه منزل «دانكريغان» تلفه الأشجار، وأمامه القمر الساطع، ووجهها.

– لتتزوجها. دفعت إليه بكلماتها مرّة واحدة. ثم أكملت:

– إذا تزوجتما تحلّ جميع المشاكل، أليس كذلك؟ يمكنك أن تتبنى «ديرميد» وتربيه على أنه ابنك. وقف أمامها كالتمثال دون حراك وجهه يلمع في ضوء القمر ولكنه خالٍ من أي تعبير سألها:

– هل أنت واثقة بأن هذا ما ترغب فيه «مرتا»؟

– لم تقل ذلك بكلمات واضحة ولكنها لمحت تلميحًا يوم كنا معًا على الشاطئ. أخبرتني بأنها ترغب في الزواج مرّة ثانية وأنها وجدت من يأخذ مكان «كروفورد» في حياتها، ويكون أبًا لـ «ديرميد». لقد رسمت لي حرف (ل) على الرمال بأنه المرشح لأن يصبح زوج المستقبل. كانت تتكلم بسرعة كأنها خائفة منه. سخر منها وقال:

– أنت جمعت اثنين مع اثنين مرّة ثانية.

– نعم. لم يعلق، لكنها لحظت في عينيه السوداوين علامة عدم الرضا. استدار من جديد ليصبح في محاذاتها ليمشي قربها في الممر المؤدي إلى المنزل.وصلا إلى المدخل الرئيسي حيث الدرجات، الضوء الخافت لا يكاد يضيء أكثر من رقعة صغيرة أمام الباب الرئيسي للمنزل. بدأت «ساندي» تصعد الدرجات القليلة المؤدية إلى الفسحة أمام الباب. قال «ليماند»:

– «ساندي» انتظري لحظة. ظنت أنه سيضيف شيئًا آخر عن «مرتا» وزواجه بها. وقفت أمامه تنظر.

– «ساندي» هو اسم مختصر لـ «إسكندر» ويبدو غريبًا لفتاة.

– لكنه بالنسبة إليّ اختصار لـ «ألكسندرا» المؤنث.

– إنه يجعلني أتهيب كأني أمام ملكة، رابطة الجأش. قالت وهي تضحك:

– كأنك أمام الملكة «ألكسندرا». أنا أعرف أنه من الممكن أن تظن أي شيء ما عدا أن أكون ملكة لها رباطة جأش وبأس.

– صدقت. رأيي فيك هو أنك طويلة، ذات رجلين نحيلتين، فتاة مغرورة، وللآن لم تعرف نفسها بعد.

– أشكرك. أعتقد أنك أعطيت رأيك بوضوح الليلة. أنت قلت: «شخص لا جنس معين له» على ما أذكر. كانت ترد له الكيل كيلين وتحاوره محاورة الند للند، ولديها رغبة ملحة في أن تتلهى معه خارج المنزل. الليل هادئ والهواء عليل وقد وجدت في الأخذ والرد معه في الكلام متعة تساعدها على التقارب والتفاهم معه. وجدت أن تخاصمهما الدائم فيه لذة غريبة. شعور لم تألفه من قبل مع أي رجل آخر.

– إذن، اسمك «ساندي». دعيني أفكر ما معناه. ربما هو كذلك بالنسبة إلى شعرك لأنه بلون الرمال، الرمال الحريرية الصفراء.

رفع يده ولمس شعرها الناعم اللامع فوق جبينها. حبست أنفاسها. شعرت بإحساس غريب يغمرها. بدأت رجلاها ترتجفان. تسمرت مكانها. كانت مصممة على البقاء على هذا الحال لتعرف ما الذي سيحصل بعد ذلك. تحركت يده ولامست جانب وجهها لمسة رقيقة ثم لف بيده ذقنها بلين وحنان. لم تحاول الإفلات. كانت لحظات ارتقاب كأنه ينتظر أن تتراجع إلى الوراء. لحظات بمقدار ضربتين من ضربات القلب، ثم انحنى فوقها فعانقها.

لم تقاوم. كانت مطيعة تتبع خطواته الخبيرة في العناق. لف ذراعيه حولها وهي كذلك لفت ذراعيها حوله لتلتصق به أكثر. لدقائق معدودة كل شيء حولهما اختفى. توقف «ليماند» أولاً ولكنه ظل ممسكًا بها قريبة إليه.

– عمل جيد من شيء لا جنس معين له سأصنع منك امرأة. أعادا العناق مرّة ثانية. كانت تتجاوب مع خلجاته. شعرت كأن بابًا مغلقًا في داخلها قد فتح لأول مرّة. غمرها شعور هائل بالعطاء دون تردد. يمكنه أن يفعل بها ما يشاء لأنها هي تشاء أيضًا.

توقفت سيارة في المدخل الرئيسي. ضوؤها وصوتها لفهما. ترك «ليماند» «ساندي» من بين يديه وهو يشتم بصوت منخفض. توقف المحرك وفتح الباب. تمنت «ساندي» ألا تكون «مرتا» هي القادمة مع «بيل لندسي».

– «ليماند»؟ أهذا أنت؟ كان صوت أنثوي رفيع يتكلم بعصبية، كأن القادمة تهاب هذا اللقاء.

– من غيري هنا! «هيلين لندسي»؟ كان يخاطبها بلهجة مهينة:

– كنت أتعجب متى تجدين حجة للحضور إلى هنا؟! كانت «ساندي» تفتح الباب. أجفلت من لهجته، وكانت متأكدة أن المرأة الأخرى قد أجفلت بدورها من قساوة ملاحظته. كانت «هيلين» تخبره وهي خائفة:

– لقد حصل حادث. رددت «ساندي» في نفسها: «حادث؟!» كان كل تفكيرها أن «مرتا» موجودة في السيارة. سألها «ليماند» بصوت جاف:

– يا «هيلين»، تكلمي. ما نوع الحادث؟

– وقعت «مرتا» هذا المساء في منزلنا في «بروكفيلد». كسرت رجلها اليمنى. علق كعب حذائها في السجادة وتزحلقت فوق الأرضية الملمعة. طلب مني «بيل» الحضور لإخبارك. قالت ذلك وبقيت تنظر إليه تنتظر أوامره.

– طبعًا، لم يكن لـ «مرتا» أن تختار مكانًا أفضل لكسر رجلها! كان يحاول المزاح قائلا:

– في منزل جراح للتجبير. أعتقد أن «بيل» تدارك الأمر وهي الآن في المستشفى تحظى بالعلاج الناجح والعناية الفائقة.

– مسكينة «مرتا»! تأسفت «ساندي» وهي تفكر في الألم ثم خيبة الأمل التي تمر بها. ثم سألت «هيلين»:

– هل هو كسر أم التواء؟ نظرت «هيلين» إليها أخيرًا. كانت تتجاهلها قبل ذلك. هناك صمت. اكتشفت «ساندي» أن «هيلين» نسيتها تمامًا. شرحت لها عن نفسها قائلة:

– أنا ابنة عمة «مرتا»، «ساندي فيليبس». أنا أسأل لأن بالي مشغول عليها. هل أستطيع زيارتها في المستشفى؟

– آه، أنت مربية الصبي الصغير. «مرتا» أخبرتني بك. كانت تتكلم بلهجة متكبرة ومتعالية:

– لا يمكنني أن أخبرك بشأن الكسر لأن صور الأشعة لم تظهر بعد، حين تركت المستشفى. عليك الاستفسار بنفسك عن مواعيد الزيارات. قالت ذلك واستدارت ناحية «ليماند» كأنها تصرفها. بالتأكيد. لاوقت لديها لمربية تافهة تسمح لنفسها أن تكون في مشهد غرامي بين ذراعي «كالدويل» صاحب «دانكريغان» وسألت:

– «ليماند»، أريد أن أحادثك بشيء مهم يخصنا.

– الوقت متأخر وعليّ القيام باكرًا لأعمال مهمة. بدأ يتحرك. شعرت «ساندي» بأنه يرفضها ويتملص منها.

– أرجوك يا «ليماند»، لهجتها المترفعة قد تغيرت لما يشبه التمني والترجي.

– لم نتقابل منذ فترة طويلة. كنت دائمًا أفكر فيك. وأريد أن أعترف لك بخطئي، كنت غبية ومغفلة. لقد صدقت «كروفورد» حين قال لي أنت...

– «هيلين»، ليس هذا المكان ولا الزمان المناسب لهذه الأحاديث.

– بل... قل... لم تكمل حديثها، بل نظرت إلى «ساندي». أحست «ساندي» أن عليها الانصراف. قالت «ساندي» قبل أن تدخل المنزل:

– مساء الخير. أغلقت الباب خلفها. صعدت السلالم بهدوء. وهي تشعر بثقل غريب في قلبها. لحظات العناق مع «ليماند» في ضوء القمر قد انتهت. انقطعت بوصول «هيلين». لو لم تحضر «هيلين»؟

ارتجفت «ساندي» قليلا، ليس من البرد أو الخوف بل من خيبة الأمل. هرعت إلى غرفتها دخلت فراشها. بدأت تفكر في «مرتا». كم من الوقت يستغرق شفاء الكسر؟ ستة أسابيع على الأقل؟! عليها الاعتناء بـ «ديرميد» لحين شفائها. ربما تأخذ الصبي معها إلى «هامشير» الأربعاء المقبل، موعد سفرها بعد أن تنتهي ضيافتها التي حددها «ليماند» بأسبوعين. ستقترح هذا الحل على ابنة خالها غدًا عندما تزورها في المستشفى.

ربما لا يسمح «ليماند» لها بأخذ «ديرميد» بعيدًا عن «دانكريغان». ذلك يتوقف على «ليماند» وكيف سيتصرف بعد أن أخبرته برغبة «مرتا» في الزواج به؟ لقد تفاجأ حين أخبرته. لكنها مقتنعة في قرارة نفسها بأن «ليماند» متعلق بابنة خالها في سرّه. ومن أجلها حضر إلى «كريغان» ثم لحق بها إلى قاعة الرقص ليسألها أسئلة تتعلق بصداقة «مرتا» و «بيل لندسي»؛ لأن «لندسي» – كما قال «جوني» – هو منافسه إلى قلب «مرتا». هي تعرف «مرتا» جيدًا ولا تستغرب أن تكون هي التي دبرت هذه الخطة لتحرض «ليماند» ليتحرك ويتصرف.

كل شيء آخر حصل هو من تأثير ضوء القمر فيها ولا يعني لها شيئًا. عناق الفتاة التي مشى معها إلى منزلها، قبل وداعها إلى النوم، شيء طبيعي بالنسبة إلى «ليماند». هو يفعله مع كل فتاة يخرج معها كجزء من المرح المنتظر بعد الرقص في القرية. لو لم تكن هي معه لكانت الساقية الشقراء... لقد تأكد لها بالبرهان القاطع أن هناك عاطفة دافئة في داخل الرجل الذي يلبس درعًا. سحر القمر. كل ما حصل معها سببه هذا السحر، ولا شيء خلاف ذلك. أغمضت عينيها واستسلمت للنوم قبل أن يتمكن منها فارس «دانكريغان» ويقضي على راحة بالها للأبد.

- 5 -

استفاق «ديرميد» يغني كعادته عندما يستفيق في الصباح. ذهبت إليه «ساندي» وأخبرته بما حصل لوالدته. تقبل الأنباء بهدوء ثم وضع يده الصغيرة في يدها وقال:

– ستهتمين بي يا «ساندي»، أليس كذلك؟ أخذته إلى المطبخ من أجل الفطور. أخبرتها «نان» بأن «ليماند» قد اتصل بالمستشفى يسأل عن «مرتا». إنها علامة حسنة، أن يهتم «ليماند» بأمر «مرتا»، مع أنه كان دائمًا يظهر عكس ذلك. سألتها «ساندي»:

– كيف حالها؟

– صحتها جيدة مرتاحة، يمكنك زيارتها بعد الظهر. «ليماند» يقول إنه

سيصحبك مع «ديرميد» لزيارتها بعد الظهر في سيارته. سأل «جوني» وهو يجلس في مكانه المعتاد إلى الطاولة:

– هل يعني ذلك أنك لن تذهبي في نزهة بحرية برفقتي أنا و «رون»؟ كان شعره دون تمشيط وعيناه حمراوان إشارة إلى أنه أطال السهرة الليلة الماضية ولم ينم كفايته. كان مكشرًا كعادته في ضحكة عريضة.

– يجب أن أزور «مرتا» مع «ديرميد» لأطمئن عليها. أعتذر يا «جوني»، يمكنك دعوة فتاة أخرى لمرافقتك.

– لا أظن. ثم غمز لها بعينه إشارة تعني أنه يعرف سرًا وقال:

– هل تمتعتِ بالمسير بصحبة «ليماند» في ضوء القمر؟ لقد غضب «رون» قليلا لمّا اكتشف أنك تركت المرقص دون أن تخبريه.

– لم أقصد أن أتركه. خرجت لأستنشق بعض الهواء النقي. لقد كان الجو خانقا داخل القاعة من كثرة الازدحام. لما عدت كنتما قد خرجتما. أظن أن «رون» وجد صديقة غيري ترافقه.

– لا، ليست صديقة خاصة. هي «شيلا غرانت» التي عادت إلى «كيركتون» في عطلة قصيرة. دعتنا لزيارتها في منزلها. وأنت أيضًا كنت مدعوة معنا. اعتقدنا أن لديك مشاريع أفضل. وعاد يغمز بعينه مرة ثانية. أحست بحمرة الخجل تعلو وجنتيها:

– ستبقين فترة أخرى هنا؛ لأن «مرتا» طريحة الفراش، أليس كذلك؟

– لا أعرف بعد. هذا يتوقف على دعوتي للبقاء.

– لكن، من يرعى «ديرميد» إذا غادرت؟

– والدتك «نان».

– لا أعتقد أنها تستطيع. ستذهب الاثنين المقبل لزيارة شقيقتها في «سكاربورو»، منذ أشهر وهي تخطط لهذه الزيارة. لقد اتفق «ليماند» مع زوجة «ويلي برودي» لتحضر كل صباح لتساعد على التنظيف والطبخ ولكنها لاتستطيع المبيت هنا، ولا رعاية «ديرميد».

– إذن، أصطحب «ديرميد» معي إلى «هامشير» عند عودتي. قالت «نان»:

– من المؤسف أن تأخذيه الآن، بعد أن بدأ يعتادنا. منزل الصغير هنا، حيث تربي والده. أنا متأكدة أن «ليماند» سيطلب منك البقاء لتساعديه.

لم تكن «ساندي» واثقة بذلك. بعد الظهر، ذهبت إلى المستشفى برفقة «ليماند»، كان كعادته منطويًا، قليل الكلام وتصرف كسابق عهده، كأن لا شيء بينهما قد حصل الليلة الماضية... ربما لم يحصل أي شيء. كلها أوهام بل أحلام. منذ وصلت إلى «دانكريغان» والفارس الأسود ينقذها من أخطار تحيق بها. عليها أن تماشي «ليماند» وتتصرّف هي أيضًا كأن لا شيء قد حصل البارحة. لقد حضرت إلى «دانكريغان» من أجل هدفين، أولا: تأمين مصاريف تعليم «ديرميد». ثانيًا: زواج «مرتا» بـ «ليماند». وجد «ليماند» مكانًا ليوقف سيارته قرب المستشفى. طلب من «ساندي» أن تنتظره قليلاً في السيارة. عاد بعد خمس دقائق يحمل وردًا أحمر، وعنبًا وعلبة شوكولاته. إنها علامة ثانية حسنة من «ليماند». سرت لاعتقادها أن «مرتا» نجحت أخيرًا في اجتذاب «ليماند»...

تقع المستشفى في ضاحية «كيركتون»، نظيفة وهادئة جدًا. في الغرفة، كانت «مرتا» مستلقية ورجلها اليمنى معلقة قليلاً إلى أعلى، تحيط بها الضمادات والأربطة. وتبدو جميلة للغاية على الرغم من كل ما قاست من تعب وألم. وجهها الشاحب يحيط به شعرها الأحمر اللامع. فرحت «مرتا» كثيرًا برؤيتهم. رفعت «ساندي» «ديرميد» لوالدته لتقبله ثم انحنت على «مرتا» تعانقها. فتحت «مرتا» ذراعيها لاستقبال «ليماند»... تردد قبل أن يقترب منها وقبلها على خدها ثم قدم إليها باقة الورد الأحمر التي كان يخفيها خلف ظهره حين دخل.

– ما أجملها! كيف عرفت أني مولعة بالورد الأحمر؟ قربتها من أنفها. شمتها ثم قالت مخاطبة «ساندي»:

– خذيها وأوجدي لها زهرية. قدمت «ساندي» العنب كما قدم «ديرميد» علبة الشوكولاته جلس «ليماند» على كرسي قرب سريرها وحمل «ديرميد» وأجلسه على ركبته. كانت «مرتا» تثرثر معه. منظر عائلي أليف. أي شخص يدخل الغرفة سيعتقد أنهم أب وأم وابنهما... قالت:

– إنها نعمة، بعد كسر رجلي، أن أحظى بهذا الاهتمام من الجميع؟ أليس سخيفًا أن أكسرها؟ سألتها «ساندي»:

– كيف كان الكسر؟ أجابت:

www.rewity.com

– الكسر فوق الركبة، ولهذا السبب هي مشدودة إلى أعلى. قال «بيل» إن عليّ البقاء في المستشفى من عشرة أيام إلى أسبوعين. نظرت تخاطب «ليماند» وقالت:

– أنا متأسفة جدًا. يجب أن تبقى «ساندي» هنا فترة أخرى لتعتني بـ «ديرميد». نظرت «ساندي» إلى «ليماند». ردّ عليها بنظرة ساخرة بعد أن ضيّق عينيه قليلاً كأنه يفكر في أن «مرتا» قد كسرت رجلها عن سابق تصميم؛ كي تبقي «ساندي» فترة أطول في «دانكريغان». لكن «ساندي» أسرعت تقول:

– يمكنني أن آخذ «ديرميد» معي إلى «هامشير» يوم الأربعاء. خيّم صمت ثقيل. عبست «مرتا». كان «ليماند» يفكر تفكيرًا عميقًا. مال بكرسيه إلى الوراء ولم ينظر إلى أحد. قال «ديرميد»:

– لا أريدك أن ترحلي! لا أريد الذهاب إلى «هامشير». أريد البقاء هنا لأذهب إلى الشاطئ كل يوم وألعب مع «لورنا» و «إيوان».

– من الواضح أن «ديرميد» قرر. كان تعليق «ليماند» على الموقف برمته. عيناه السوداوان كانتا خاليتين من أي تعبير. ثم نظر إلى «ساندي» وقال:

– الرأي هو رأيك، هل من الممكن أن تبقي في «دانكريغان» وتهتمي بـ «ديرميد» لحين شفاء «مرتا»؟

– أرجوك يا «ساندي»! قولي نعم، سأشفى بسرعة إذا تأكدت أن «ديرميد» قربي وأنت تهتمين به. لا يمكنها الرفض حتى ولو كان «ليماند» يعارض بقاءها. عليها أن تبقى من أجل الصغير فقط.

– نعم، أستطيع. سألها عن الاتفاقية الجديدة:

– هل من شروط جديدة؟ نظرت إلى عينيه ورأت ومضة شيطانية سريعة جعلت نبضها يسرع. قالت:

– شرط واحد فقط.

– ما هو؟

– سأبقى، شرط أن تسمح لي بأن أحفر خلف الحصن أو جانب التلة قربه. أفتش عن بقايا أثرية تبرهن على أن هناك حصنًا قديمًا في «دانكريغان» يعود تاريخه إلى القرن السادس. تبادلا النظرات لدقائق كأن لا أحد معهما في

الغرفة...

– يمكنك ذلك متى رغبت، لكن لا تتعمقي كثيرًا، ثم لا تحفري مكان المزروعات. عليك الانتباه إلى «ديرميد» والمساعدة في أعمال المنزل في غياب «نان». استغربت «مرتا»:

– وهل سترحل «نان»؟ لم أكن أعرف. متى ستعود؟ قال «ليماند»:

– لست متأكدًا. وأكمل قائلا:

– ستبقى مع شقيقتها بضعة أسابيع. لديها النية في مشاركتها في إدارة الفندق الذي تملكه أختها. سألت «مرتا» مهمومة:

– من سيدير المنزل في «دانكريغان» في غيابها؟

– يا زوجة أخي العزيزة لم نتفق بعد على ذلك. قال هذا ثم وقف ليخرج:

– مبدئيًا السيدة «برودي» ستعمل بعض الوقت في الصباح. لديّ الآن موعد عمل. سأترككما لتثرثرا. سأعود بعد نصف ساعة. سأراك يا «ساندي» مع «ديرميد» في مدخل المستشفى. نظر إلى «مرتا» ثم قال:

– اعتني بنفسك. افعلي كل ما يأمر به الجراح. هو يعرف ما هو أفضل لك. أراك فيما بعد. نظرت «مرتا» إلى «ساندي» مستغربة كل هذا اللطف، عن غير عادة.

– ما الذي غيّره؟ كم هو لطيف! كدت أظنه زوجي «كروفورد»، هل لديك أي تفسير لهذه التغييرات؟ قالت «ساندي» مستغربة:

– ربما لأنني أخبرته برغبتك؟ سألت «مرتا»:

– ماذا تقصدين؟ أعتقد أنني بعد هذه الحادثة أصبحت لا أفهم بسرعة. وقعت البارحة على مؤخرة رأسي بالإضافة إلى الكسر في رجلي ربما هناك جرح بسيط في رأسي. قال « بيل» إنه يندمل ببطء. «ساندي» إن «بيل» لطيف للغاية. بدأت أعتقد أن الحادثة التي حصلت لي كانت نعمة هبطت عليّ من السماء. «ليماند» جلب لي الورد و «بيل» يهتم بي كثيرًا... ماذا قلت له عن رغبتي؟

– هل تذكرين عندما سألني «ليماند» عما إذا كنت متأكدة أنك لا ترغبين في شيء آخر غير تعليم ابنك؟

– نعم أذكر...

– لقد أخبرته بأنك ترغبين في الزواج مرّة ثانية، سألت «مرتا»:
– كيف كانت ردّة الفعل عنده؟
– لست متأكدة، لم يقل شيئًا. ربما هنا تكمن أسباب تغييره اليوم. أعتقد أنه شغوف بك يا «مرتا» ويخفي عواطفه عنك لأنك ترملت منذ فترة قصيرة. هو أيضًا لا يعرف شعورك نحوه. حدّقت «مرتا» إليها ثم ضحكت ضحكة هيستيرية.
– ربما تكونين على صواب.
– أعذريني لأنني أخبرته. كنت سأسافر بعد أيام قليلة. ظننت أن إعلامه برغبتك قد يساعده على الإسراع في اتخاذ القرار المناسب ليحلّ المشكلة المتعلقة بثلاثتكم، هو وأنت و «ديرميد». تمتمت «مرتا» وقد ظهر العبوس على جبينها قائلة:
– ربما هذا يساعده على المدى البعيد.
– هل أنت تعبة؟ تعجبت «ساندي» لماذا أثار حديثها غضب «مرتا»؟ وكانت تنتظر أن تراها مهللة فرحة لأنها انتصرت عليه أخيرًا. لقد وجدت نقطة ضعفه. لقد تأكدت بما لا يقبل الشك، أنه إنسان دافئ، يتفاعل مع عواطفه وأحاسيسه كأي رجل عادي. وما تصرفاته القاسية، وبروده، وعدم اكتراثه سوى أقنعة يختفي خلفها الرجل الحقيقي.
– إني تعبة قليلا، تنهدت، لقد قال «بيل» إنني سأشعر بتعب من جرّاء الحادث، ناتج من الألم الذي كابدته... هل «هيلين» هي التي أنبأتكم بأنني وقعت؟
– نعم، كنا قد وصلنا لتونا من مرقص القرية.
– من؟ أحست «مرتا» بأن في الجو مغامرة عاطفية.
– أنا و «ليماند». اجتهدت «ساندي» في أن تخفي حمرة الخجل عن وجنتيها حين تذكرت ماذا كانت هي و «ليماند» يفعلان ساعة وصلت «هيلين» بالخبر.
– آخر مرّة رأيته كان في الفندق يشرب برفقة الساقية الشقراء. أذكر أنني قلت وقتها إنه يشبه شقيقه في تصرفه في هذا الحقل أيضًا بالإضافة إلى الشبه في شكلهما... سألت «مرتا»:

– ثم حصل تبادل في حلبة الرقص، أليس كذلك؟ سألت «مرتا». أجابتها «ساندي» بصوت خفيض:
– نعم. فقط ليسألني عنك. كان قد رآك مع «بيل لندسي» وأراد أن يعرف مني، كيف توصلت إلى توطيد هذه الصداقة؟
– آوه، أرجو ألا تقف الخصومة بيني وبين «بيل» وتجعل صداقتنا صعبة. أتمنى ألا يعتقد «ليماند» أن له الحق في اختيار أصدقائي أيضًا.
– لا، لا أظن ذلك. إنه فقط يتعجب كيف وجدت أصدقاء من تلك الضاحية. الظاهر أن والدة «هيلين»، في الماضي، لم ترضَ عن صداقة قامت بين «هيلين» و «كروفورد». ربما كان هذا هو سبب تصرف «هيلين» الغريب وصدها لك وتعليقاتها الغريبة.
– تظنين أنها تغار مني لأنني تزوجت «كروفورد» وفشلت هي؟!
– هذه هي الحقيقة.
– فكرتك صائبة يابنة عمتي الصغيرة. إن «هيلين» تغار مني لسبب آخر غير هذا السبب. كان «ديرميد» يأكل الشوكولاته لاهيًا عنهما. طلبت «مرتا» من «ساندي» أن تأخذها منه قبل أن يأكلها كلها ويمرض. ثم قالت له:
– عزيزي «ديرميد» الشوكولاته لي وليست لك. بدأ «ديرميد» في نوبة صراخ وغضب لأن «ساندي» أخذت منه الشوكولاته.
ودّعت «ساندي» «مرتا» بسرعة بعدما أخذت «ديرميد» إلى الحمّام حيث غسلت يديه ووجهه ونزلت به إلى المدخل. لم يكن قد حان موعد رجوع «ليماند» بعد. أخذته إلى الحديقة العامة القريبة من المستشفى، حيث لعب قليلاً وعادت أدراجها إلى مدخل المستشفى. وهي في طريق العودة لمحت «ليماند» وبقربه «هيلين» يقطع الشارع عائدًا إلى المستشفى. إذن، هذا هو موعد العمل. لقد تمت ترتيبات هذا اللقاء بينهما الليلة الماضية. سألها «ليماند»:
– هل تأخرت؟ كان يبدو مرحًا على غير عادته. مشى قربها. تلفتت حولها لترى أين اختفت «هيلين».
– دخلت إلى المستشفى. كأن «ليماند» عرف سؤالها دون أن تسأل.
– ستعمل هنا لنهاية الأسبوع بديلة عن طبيب غائب في إجازة. ستقوم مؤقتًا بهذا العمل لحين أن تركز عيادتها الخاصة. ماذا ترغبين في أن نفعل؟

تساءلت «ساندي» وهي تفكر في نفسها: «ماذا نفعل؟ كيف يمكنه وهو المتكبر الآمر الذي اعتاد أن يفعل ما يريد وعلى الآخرين أن يرضخوا إلى ما يقرر ويرضوا به. هي المرّة الأولى التي سألها عن رأيها».

– لدينا كل وقت بعد الظهر و «ديرميد» معنا. أنا لا عمل ضروري لديّ. هل ترغبين في التسوق؟ كان يفتعل المرح. إنه ليس من طبعه. لا يستطيع أن يمشي خلفها من متجر لآخر وهي تتبضع وتشتري. رمقته بطرف عينها. حاولت أن تقيّم مزاجه الجديد. لم ترَ في عينيه السوداوين أي تعبير يساعدها على الفهم.

– هل تعتقد أن باستطاعتنا رؤية الركام (بقايا حصن رملي قديم)؟ سألها باستغراب كأنه يسمع الكلمة للمرة الأولى:

– ما هو؟

– هي تربة عالية، ترتفع عن سطح الأرض بضعة أمتار، ذكرها والدك في مخطوطاته التاريخية، وتبعد بعض الكيلومترات عن هنا. إنه مكان تاريخي يوم كانت البلاد قسمًا من المملكة. في هذا المكان كان الملوك الأقدمون يعقدون اجتماعاتهم العامة ويضعون القوانين. أحب أن أراها. إنها من المواقع التاريخية المهمة هنا. نظر إليها مليًا. ضاقت عيناه السوداوان قليلاً. ظنت، لوهلة وجيزة، أنه سيرفض طلبها. ثم تبسم، وبالتالي ضحك قلبها، وأسرع في ضرباته...

– كان عليّ أن أعرف مسبقًا أن التسوق لا يروقك... نذهب إلى الركام الذي قرأت عنه حتى لا تتهميني، مرة ثانية، بأنني لا أهتم بالماضي.

جلست «ساندي» في المقعد الأمامي ومعها «ديرميد». كانت تتابع المناظر حولها باهتمام وتراقب وجود تلة من التراب وسط الحقول. بدأ الركام يظهر من بعيد. التلة مرتفعة أكثر مما توقعت... جوانب الركام منحدرة وقمته مسطحة. أشارت «ساندي» قائلة:

– ها هو إلى اليمين.

– يمكننا أن نوقف السيارة بالقرب منه. الطريق خالية من السير. المكان حولها خالٍ تمامًا. كانت أول خطوة خطتها «ساندي» بجانب الحائط الحجري القديم والذي يشكل طرف الركام. شعرت «ساندي» بالشعور نفسه

الذي انتابها يوم زارت حصن «دانكريغان»، كأنها تخطو إلى التاريخ، إلى العصور الماضية. رائحة أعشاب وأزهار برية، وصوت قُبَّرة تغني في الهواء النقي، مياه النهر تعلن نغمًا في انسيابها، اختفاء ضجيج السير يعزز دقة الحس، حدقت إلى الركام أمامها. وفي لحظة تخيلت حشدًا من الناس قد حضر ليرى ويسمع إصدار الأحكام على كبار المجرمين.

– هنا كانت محكمة العدل في الزمن الماضي.

– أكملي درس التاريخ. كان «ليماند» يضايقها. أجفلت ثم عادت إلى الواقع قال «ليماند»:

– في الحقيقة إنني أجهل هذا المكان ولكنه مثير. ماذا يمثل لك؟

– إنه مثال مدهش لبقايا حصن قديم. القسم الأوسط للركام مع القمة المسطحة يشكلان القسم الأساسي للحصن. حوله المحكمة وملصق بها منصة الحكم. تحتها الخنادق التي تملأ بالمياه لتحمي الحصن من الهجمات والاعتداءات. لقد استغرق بناؤها زمنًا طويلاً أو ربما استنفد المئات من العمال.

– هل يوجد ما يشبه الركام في حصن «دانكريغان»؟

– ليس منظورًا. والدك ومن قبله ماسح أراضي محلي كانا يؤمنان بوجوده لقد وجد والدك بقايا بعض الآثار التي تؤيد نظريته، ألم يخبرك بما وجد؟

– كلا، جميع حفرياته تمت بعد رحيلي منذ 12 سنة. اتصالي به لم يكن على مستوى علمي. لما عدت قبل سنتين ونصف تقريبًا كان قد أصيب بنوبة فالج شلته عن الكلام السوي. هل تعرفين ماذا وجد؟

– دبوسًا للزينة وكتلة خزفية معدة للصب في أشكال مختلفة.

– أنت ترغبين في المزيد من الحفريات لعلك تعثرين على أدلة جديدة.

– نعم، لقد وعدني «رون كارسن» أن يجلب لي صورًا فوتوغرافية، أخذت من الجو للمنطقة كلها، يوم كانت تحت سلطة والده. إذا نظرنا إلى هذه الصور يمكننا الجزم بوجود أشكال مشابهة للركام والتي تبرهن بدورها على وجود مستوطنين قدماء يعود تاريخهم إلى القرن السادس.

– فهمت. ونظر إلى أعلى الركام الذي يرتفع كالبرج.

– لو أعثر على الدبوس والقطعة الخزفية التي وجدهما والدك في حفرياته؟ هل لديك فكرة أين يمكن أن يكونا؟

– انظري مجددًا داخل المكتبة. من المؤكد أنهما هناك. بينما كانت تثرثر مع «ليماند»، أخذ «ديرميد» يتجول في المكان لوحده. رأته يقفز بين العشب باتجاه النهر. صرخت وركضت لفورها خلفه ثم قالت:

– انتبه يا «ديرميد»! اقتربت من ضفة النهر. سمعت صوت المياه تصب من الأعلى ثم شاهدت شلالاً صغيرًا تتدفق مياهه من علو بضعة أمتار، في بركة صغيرة. أراد «ديرميد» أن يرى الشلال. تعثر بجذع شجرة ووقع في البركة. لم تكن المياه عميقة لكن المياه كانت تلف بعد انحدارها من الأعلى وتشكل تيارًا لا يستطيع الصغير مقاومته. حملت المياه جسمه الصغير وجرفته إلى مصب النهر. صرخ طالبًا مساعدتها:

– «ساندي»! دون تردد نزلت خلفه في النهر. كانت مياه النهر تصل إلى خصرها. تحركت بسرعة نحوه. كان يحرك رجليه كما علمته في دروس السبّاحة سابقًا دقائق قليلة ثم وصلت إليه وأمسكت به. كان كتلة مبللة. أحاط بكلتا ذراعيه عنقها. بدأت تسير نحو الضفة ولكنها انزلقت، وبالتالي فقدت توازنها. جلست وسط الماء. وجد «ديرميد» أن الوضع الجديد ليس آمنًا. بدأ يصرخ طالبًا النجدة. لم تستطع الوقوف من جديد. كلما حاولت النهوض كانت تنزلق من جديد. كان الصغير يعوقها عن النهوض. قالت تطمئنه:

– أمسك بي جيدًا يا «ديرميد»، هذه المرّة سننهض. وبالفعل استطاعت أن تقف هذه المرة؛ لأن «ليماند» وصل لنجدتها. أمسك الصغير وحمله. ولدهشتها ذهب «ديرميد» لتوه إلى حضن عمه ولف ذراعيه حول عنقه كأنه شعر بأن الأمان لديه. وصل «ليماند» بالصبي إلى الضفة ثم عاد ليساعد «ساندي».

كان شكلها فوضويًا. خلعت حذاءها لتفرغه من الماء. ثوبها مبلل لنصفه. وشعرها أصابه البلل. أما «ليماند» فقد حافظ على كامل أناقته المعتادة. خلع حذاءه قبل أن ينزل الماء وكذلك خلع سترته ورفع رجلي بنطلونه إلى أعلى. وضع «ليماند» «ديرميد» على ركبته يخلع عنه الثياب المبللة ثم خلع «ليماند» كنزته السوداء وألبسها للصغير. ونظر إلى «ساندي» وقال:

– آسف. ليس لديّ أي شيء ألبسك إياه.

– أوه، لا يهم. أنا بخير. شكرًا لإنقاذي مرة ثانية من الخطر.

– كنت اليوم أنت المنقذة. من حسن حظ «ديرميد» أنك سريعة الحركة. نظر إلى ثوبها المبلل، وقدميها العاريتين، وشعرها المبلل ثم قال:

– إنك تذكرينني بامرأة كنت أعرفها.

– من هي؟

– تذكرينني بوالدتي... أنا لا أقصد أنك بالنسبة إليّ تمثلين الأم بحنانك أو أنك تشبهينها بشكلك... إنك سريعة الحركة في المواقف الحرجة، إنك مندفعة بل ومتهورة. لست أنانية، متحمسة للتاريخ. هي أيضًا مثلك مندفعة ومتهورة وكانت متحمسة جدًا للإبحار وقد قادها حماسها إلى الغرق.

– هذه أول مرّة تذكرها.

– كنت أنا وأخي «كروفورد» في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرنا لما غرقت. إني أذكرها جيدًا... قام واقفًا بعد أن وضع «ديرميد» على كتفيه وأكمل:

– تركت سترتي وحذائي فوق. نلملمها ثم نعود إلى البيت. لقد تعب الصغير.

في طريق العودة جلس «ديرميد» في حضن «ساندي». الصمت خيّم على الجميع. كانت «ساندي» تفكر وتحلم بالركام ثم بـ «فيليدا» والدة «ليماند» والتي لم تعد شبحًا يخيف بل تجسدت امرأة عاشت بحماس وماتت وهي تتابع حماسها... ثم فكرت في «هيلين لندسي» ثم في «مرتا». أرادت أن تثير «ليماند». أخبرته بأن الورد الأحمر قد أعجب «مرتا» كثيرًا. لم يجب بأية كلمة. اكتشفت أنه بدأ اعتزاله من جديد. تعجبت في نفسها كيف رضي أن يأخذها إلى الركام؟! تذكرت ما حدث معهم وقررت أنه سوف لن يأخذها لأي مكان آخر. ضحكت ساخرة من نفسها وقالت: «من الآن فصاعدا سيبتعد عني لأنني ميالة إلى الوقوع وقد تعب من إنقاذي».

حين وصلت إلى المنزل شعرت بسعادة كبيرة، وراحة بال. إنه أمان وراحة. أصرت «نان» على أن تحمي الصغير بنفسها. طلبت من «ساندي» أن تسارع في تغيير ثيابها المبللة. في خلال الطعام سردا إلى «نان» أخبار «مرتا» ثم زيارتهما الأثرية للركام. بعد الطعام أخذت «ساندي» «ديرميد» لغرفته لينام. نام لفوره. عادت إلى المطبخ لتشرب فنجانًا من الشاي مع «نان». خرج «ليماند» بعد العشاء، و «جوني» ما يزال في «كريغان».

– أخبرني «ليماند» بأنك مسافرة ومن الممكن أن تستقري في «سكاربورو» وستعملين في فندق شريكة لشقيقتك.

– كانت تصر عليّ منذ فترة. في الماضي لم أشأ أن أترك «كافن» لوحده. الآن لا أحد يحتاج إليّ. «جوني» كبر ويستطيع أن يعتني بنفسه و «ليماند» سيتزوج قريبًا. سألتها «ساندي» بشوق:

– حقًا، هل هناك فتاة معينة؟

– لا أحد يعرف ما بداخله. هو كتوم، كوالده، ولا يحب أن يشاركه الآخرون في أسراره. ولكنه لا يستطيع أن يعيش دون رفقة امرأة. هو هادئ وبارد الطبع ولكنه يحمل دمًا حارًا في عروقه، دماء «كالدويل». فكرت «ساندي» في وضع «نان». هل كانت عشيقة «كافن»؟ إنها أيضًا تحمل دماء «كالدويل» في عروقها ومن الطبيعي أن يكون دمًا حارًا، في صباها.

– أخبرني «ليماند» بأن والدته كانت تحب الإبحار ومتحمسة له. قالت ذلك تجر «نان» للحديث عن «فيليدا».

– هذا صحيح. لقد كانت دائمًا حاضرة للنزهات. كانت الحياة تدب في عروقها. شجعها «كافن» على هوايتها في الإبحار واشترى لها مركبًا لهذه الغاية. كانت الإشاعات كثيرة حولها، لأنها تمضي الصيف كله في نادي «اليخوت»، يوميًا مع شلة من أصحابها. تكلم الناس عنها وعن أصحابها من الرجال الذين عرفتهم. لم تكن تأبه قط لكلام الناس. كانت متهورة ومندفعة. ولما اشترى «ستيوارت لندسي» مركبًا جديدًا وأراد أن يجربه، لم يتقدم إلى مرافقته في ذلك اليوم غيرها. كانت الرياح شديدة عاتية...

– هل «ستيوارت» قريب لـ «بيل لندسي»؟

– إنه والده. يمكنك أن تتصوري الفضيحة حين عثر على الجثتين في المصب. كانت الإشاعة التي دارت، أنهما كانا بصدد الهرب معًا. هذا ما كسر قلب «كافن».

– هل في الإشاعة شيء من الحقيقة؟

– من يعرف؟ أنا أعرف «فيليدا» ولا أظن أن هناك أية صحة لها. فقط هي و«ستيوارت» يعرفان الحقيقة. بموتها ماتت الحقيقة... ثم قالت:

– ستبقين هنا لترعي «ديرميد» لحين شفاء «مرتا»؟

– نعم. كانت «نان» تحرك فنجان قهوة «ساندي» لتقرأ لها طالعها. سألتها «ساندي»:

– ماذا ترين في فنجاني؟

– أرى رجلا أسمر، جميلاً، في طريقك. هذا لا يستغرب مادُمتِ في هذا المنزل. أرى امرأة طويلة، ليست ابنة خالك...

– إنها «هيلين لندسي» خرج الاسم من بين شفتي «ساندي» دون سبب معين.

– ما الذي جعلك تفكرين فيها؟ نظرت إليها «نان» بتعجب ثم قالت:

– رأيتها اليوم بعد الظهر في المستشفى. رأيتها تتكلم مع «ليماند». هل تعرفينها؟

– طبعًا، لما كنت شابة يافعة كانت تحضر دائمًا إلى هذا المنزل من أجل التوءمين لتلعب معهما. منعها أهلها من القدوم إلينا بعد موت «فيليدا». كانت تلتقيهما خارج البيت. ولما كبرت سافرت ولم تكن لتعود إلا في العطل المدرسية مثلهما. كانت تحضر إلى هنا وتسألني أين تجدهما؟ كأنني أعرف؟ إنهما كالنسرين، ولم يسلم أحد من شيطنتهما. سمعت أن «هيلين» عادت من الخارج وهي التي أخبرت «ليماند» بحادث «مرتا». ستعود. إنها هنا في استقبالك. احذريها. إنها صاحبة مقالب وربما تسبب لك المتاعب.

مر يوم الأحد. تلاه الاثنين. سافرت «نان» الاثنين إلى «ديمفريز» برفقة «جوني». من هناك ستستقل القطار إلى «كارليزل» ثم تغير إلى قطار آخر يأخذها إلى الشاطئ الشرقي. كذلك وصلت صباح الاثنين السيدة «برودي» من أجل تدبير المنزل في غيابها، الغسيل والتنظيف والطبخ. كانت «ساندي» متفرغة لـ «ديرميد» ورعايته صباحًا. في أثناء قيلولته بعد الغداء، ذهبت «ساندي» إلى خلف الحصن من أجل الحفريات. نظرت حولها متفحصة. لم ترَ أي شيء يدل على وجود ركام بالقرب من الحصن. عادت إلى المنزل. ولما استفاق الصغير أخذته معها لجمع البيض وتعليبه. وبعد ذلك ذهبا إلى الشاطئ ليلعب مع «إيوان» و «لورنا لندسي». عادت في الساعة الخامسة لتحضير الشاي والعشاء. بعد العشاء، أخذها «جوني» بسيارة «ليماند» إلى «كيركتون» لتزور «مرتا» في المستشفى.

مرت أيام أخرى متشابهة. لم يحصل أي شيء غير طبيعي. في يوم ماطر، وجدت «ساندي» أن الفرصة سانحة لتدخل المكتبة تفتش عن الدبوس والكتلة الخزفية التي عثر عليها «كافن كالدويل». جلبت على الفور أدوات التنظيف من المطبخ وحملت السلم الصغير من خلف الباب وبدأت عملية التنظيف التي وعدت «ليماند» أن تفعلها قبل أن يطلب خبيرًا من المتحف لتقييم الكتب وآخر لتقييم الأثاث. كان السلم مخربًا نوعًا ما ولكنه يفي بالحاجة. صعدت السلم وبدأت في الرف العالي إلى يسار المدفأة. كانت تأخذ كل كتاب تمسحه من الغبار وتضعه على السلم قرب رجليها. كانت تنوي أن تنظف الرف قبل إعادة الكتب إليه.

معظم الكتب الموجودة تبحث في تاريخ الجيش والحروب. تصفحتها. كانت منهمكة في القراءة حين خاطبها «ليماند» وهو واقف بالباب. أخافها صوته فوقع الكتاب من يدها وأحدث صوتًا مكتومًا. سألته:

– ماذا قلت؟ مشى نحوها ليلتقط الكتاب من الأرض ويعطيها إياه. منذ أن خرجا إلى الركام، لم تكن تراه، إلاّ وقت الطعام. عاد إلى انعزاله السابق. كان يلبس لباس العمل في الحقول وينتعل حذاءً مطاطيًا. لو كانت «نان» موجودة لطلبت منه أن يخلع حذاءه قبل أن يترك المطبخ إلى داخل المنزل!

– كنت أسألك إذا كان السلم آمنًا؟

– أعتقد ذلك. لكنني ما زلت بطيئة في عملي ولم أحرز تقدمًا. ما زلت في الرف الأول. إن جميع الكتب الموجودة ملذة وأنا أحاول أن أتعرفها.

– هل تخليت عن الحفريات؟

– كلا، وجدت من الأفضل أن أنتظر الصور الفوتوغرافية المصورة من الجو. آمل أن يجلبها «رون» الليلة، كما وعد. من خبرتي السابقة في هذا المجال، الصور تؤكد لي وجود مكان الركام وبالتالي يسهل عليّ تحديد منطقة الحفريات. دخلت أفتش عن الآثار، وتذكرت أنني وعدتك بتنظيف الكتب. تمتم قائلاً:

– لست مجبرة على هذا العمل.

– أريد ذلك. شعرت فجأة بأنه يراقبها بعينيه السوداوين. تلهّت عنه بكتاب على الرف وبدأت تنظفه. سألها «ليماند»:

– ما هي آخر الأنباء عن «مرتا»؟

– إنها تتحسن. لم يسمح لها «بيل» بمغادرة الفراش بعد. ربما يسمح لها بمغادرة المستشفى في نهاية الأسبوع المقبل. هذا يعتمد على حسن استعمالها للعكازين. ثم هناك بعض الترتيبات الضرورية. علينا تحضير غرفة نوم لها في الطابق الأرضي. هل تعتقد أن باستطاعتنا تدبير هذا الأمر؟ أجابها دون اكتراث:

– أعتقد أننا نستطيع تغيير غرفة الطعام إلى غرفة نوم لها. اطلبي من «جوني» مساعدتك على نقل الأثاث إليها. ثم رفع يده وأمسك بكتاب من الكتب المكدسة على السلم. أحنى رأسه ليتصفحه. حدقت «ساندي» إلى شعره الأسود وهي تقول في نفسها: «أي لغز هو «ليماند»؟» كان بإمكانه أن يسألها عن «مرتا» في خلال الطعام في الأسبوع الماضي. تعتقد أنه لم يكن يصغي إليها حين حدثته عنها. سألته وهي تلومه بلطف:

– «مرتا» تتعجب، لماذا لم تزرها في المستشفى مرّة ثانية؟ أجابها ببرود وهو يتصفح الكتاب:

– ولماذا أزورها مرّة ثانية؟ وأنت تذهبين يوميًا. كل ما ترغب فيه «مرتا»، أعرفه منك. ألست الرسول بيننا؟ أليس هذا دورك؟ هو يذكرها بالاتفاق بينهما. تمنت لو تضربه بكتاب على رأسه. إنه يضايقها. أكمل:

– هل لديك رسالة جديدة لي؟ نظر إليها بمكر. شعر بأنها تضايقت منه. ردّت عليه بغضب:

– أنا... أنا لا أستطيع إلاّ أن ألفت نظرك!

– لماذا؟ ماذا فعلت؟

– إنه شيء لم تفعله... يمكنني القول إنك تجهل كيف تغازل امرأة. سألها بمكر وسخرية:

– من عليّ مغازلتها؟

– «مرتا» طبعًا. لا أستطيع مساعدتك أكثر. لقد أخبرتك برغبتها... البقية عليك. هي مستلقية على ظهرها في الفراش ولا تستطيع حراكًا. رجلها مكسورة. أما أنت فتستطيع... توقفت فجأة بعد أن شعرت بأنه يراقبها وفي عينيه ضحكة واضحة.

– أكملي، زيديني علمًا وثقافة. أخبريني ما الذي عليّ القيام به؟
– تستطيع مثلاً أن تزورها.
– لكنك قلت أنها ستعود إلى المنزل في نهاية الأسبوع. سأراها حينئذ.
– صحيح. لكن ألا ترغب في الزواج بها؟
– أنا لا أذكر أنني قلت سأتزوج بها أو بغيرها.
– لقد قلت لي منذ أيام أنك ربما وجدت زهرة لتبقى معك. كذلك قالت «نان» إنك ستتزوج قريبًا لأنها لاتتصور أنك تعيش هنا لوحدك دون امرأة ترافقك درب حياتك...
– وأنت جمعت كالعادة حساباتك! لاحظت أنه تضايق كثيرًا، لأن خططه للمستقبل قد بحثتها مع «نان». وأكمل بغضب شديد قائلاً:
– أعتقد أن «مرتا» تدبر خطة تؤمّن بها لابنها أبًا ولها مركزًا اجتماعيًا من زواج ثانٍ. وأنت تفترضين أن أكون أنا الزوج المرتقب. ثم أعاد الكتاب إلى المجموعة. طوى ذراعيه على صدره ونظر إليها. كانت تعابير وجهه تتحداها. نظرت إليه «ساندي» مستسلمة وعرفت أن رأيه في «مرتا» لم يتغير. هي في نظره عنيدة، ماكرة ووصولية.
– لماذا إذن أهديتها الورد الأحمر؟
– لا ينقصني التهذيب. هل من اللياقة الاجتماعية أن أزور مريضة في المستشفى ولا أقدم إليها بعض الزهور؟ لو كانت «نان» أو حتى السيدة «برودي» لفعلت الشيء نفسه. ثم أكمل يسألها:
– أعتقد أن «مرتا» لم تأخذ الورد الأحمر على غير محمله؟
– أعتقد... أعتقد أنها فعلت ذلك. أجابته بهدوء:
– بعد أن نزلت من المستشفى قالت لي إنك تغيرت في معاملتها، أصبحت لطيفًا... ظننتك «كروفورد» تجلس قربها تحادثها. أصبحت تعابير وجهه متسلطة.
– ذكرت لـ «مرتا» أنني أخبرتك برغبتها في الزواج. انخفض صوتها إلى متمتمة.
– لا بد من أنك تعتقد الآن أنني غبية؟
– ليس ذلك فقط بل إنك لا تجيدين جمع اثنين مع اثنين أيضًا. لماذا

لا تكفين عن جمع المعلومات؟ كفّي عن دفعنا إلى أدوار لا نرغب في تمثيلها؟ أنا أعتقد أن الزواج أمر جدي للغاية. زوجة مثل «مرتا» ستكلفني أموالاً باهظة وأنا أدقق في مصروفي لأوازن ميزانيتي. إنها تحب أن تغمر بالهدايا. ترغب في تجديد أثاث المنزل دفعة واحدة ليصبح عصريًا. وأنا لست مستعدًا لأتكبّد مصاريف زوجة مثلها. انفجرت ساخطة:
– الزواج يتطلب أكثر من... مصاريف. هناك الحب والعشرة مع شخص يعجبك. أجابها «ليماند» وهو يضحك:
– بالطبع. يمكنني الحصول على الحب والعشرة دون رباط زوجي. أم أنك لا تعرفين ذلك؟
– لم أعرف في حياتي رجلاً مشاكسًا مثلك. تضايقت منه كثيرًا. أمسكت كتابًا لتضربه به. أمالت السلم تحتها. تأرجحت في الهواء. أسرع «ليماند» وأمسك بها قبل أن تسقط إلى الأرض. ثقل جسمها المنهار قلب كيانه. اختل توازنه ووقعا أرضًا. حاولت الإفلات من قبضته لكن ذراعيه أطبقتا عليها بشدّة. جذبها إليه ليوشوشها في أذنها قائلاً:
– إنقاذ رقم خمسة يا جميلتي الساحرة. هذه المرة كان الخطر أقل. والإنقاذ مثير. ألا أستحق مكافأة لأنني جعلت من نفسي وسادة لك؟ أفكاره الجديدة جعلت رأيه واضحًا فيها. الحب والعيش دون رباط زوجي يعني أنه يستغلها.
– دعني أذهب.
– ليس الآن، لم تسنح لي فرصة مؤاتية لأجعل منك امرأة. أجابته بغضب وهي تحاول إفلات يديه عن خصرها:
– ولا فرصة لك الآن أيضًا؟ ثم أكملت:
– لا أرغب في عناقك.
– أعتقد أنك تريدين. قال ذلك وبسرعة أفلت يديه عن خصرها وأمسك بوجهها. نظرت إليه شبه مسحورة بينما كان يعانقها.
سمعت «ساندي» صوتًا بالباب، وكذلك سمع «ليماند». تركها ونظر إلى الباب. وكذلك نظرت هي. دفع الباب ببطء ظهرت خلفه سيدة طويلة أنيقة ترتدي قبعة زرقاء فوق معطف المطر الأزرق. كانت «هيلين لندسي» على

الباب. تجمدت عيناها الزرقاوان وهي تحدق إليهما. يجلسان على الأرض ملتصقين.

- 6 -

استغربت «هيلين» وضعهما:

– ماذا تفعلان؟ أجابها ببرود:

– نمسح الغبار عن الكتب وننظفها. نهض واقفًا وساعد «ساندي» على الوقوف وأكمل:

– كانت «ساندي» تقف على السلم. مالت به وسقطت. أصلح وضع السلم المقلوب وأسنده إلى الحائط قرب رفوف الكتب. رفعت «هيلين» حاجبيها مستغربة:

– أهكذا؟ شرعت «ساندي» تحمل الكتب وترفعها عن الأرض في محاولة لإخفاء الخجل عن وجهها. أكملت «هيلين»:

– قرعت الباب. ولما لم أسمع جوابًا. دخلت. ربما كنتما مشغولين فلم تسمعا... وقف «ليماند» يتسلى بالنظر إليها ولم يظهر عليه أثر لقلق أو اضطراب. سألها بسخرية:

– ما سبب زيارتك الكريمة اليوم؟ لا تقولي إن حادثًا آخر قد حصل!

– لا، لا، والحمد لله. «مرتا» تتحسن بسرعة. اليوم صباحًا بدأت تستعمل العكازين. فقط حضرت من أجل «ديرميد». أود أن آخذه معي ليلعب مع «لورنا» و «إيوان» بما أن الطقس ماطر ولا مجال للعب على الشاطئ، هذا إذا وافقت يا «ليماند».

– ذهاب «ديرميد» يتعلق بمربيته. رتبي الأمر معها. اعذريني، حان الوقت لأعود إلى عملي. نبني مستودعًا جديدًا. نحاول إتمامه من الداخل بما أن الطقس ماطر. نادته وهي تتبعه:

– «ليماند»! سمعت «ساندي» وقع أقدامهما مبتعدين. أكملت عملية جمع الكتب من على الأرض. عليها إيجاد سلم أمتن قبل أن تكمل عملية التنظيف. خرجت لتفقد «ديرميد»؛ لأن وقت قيلولته شارف على الانتهاء. لم ترَ

«هيلين» ولا «ليماند». كان وجهها دافئًا. تذكرت تصرفها مع «ليماند» حين حاول عناقها...

سر «ديرميد» حين أخبرته بأنه مدعو ليلعب مع «لورنا» و «إيوان». نزلا حيث كانت «هيلين» تنتظرهما. كانت خارجة من المطبخ لتوها.

– أردت أن أتكلم مع «نان». إنها ليست في المطبخ. هل تعرفين أين هي؟

– ألم يخبرك «ليماند»؟ لقد ذهبت إلى «سكاربورو» لبضعة أسابيع.

– من يقوم بأعمال المنزل في أثناء غيابها؟

– السيدة «برودي» تأتي كل صباح.

– وبعد الظهر؟

– فقط أنا.

– أنت وحدك مع «ليماند»؟

– معنا «ديرميد» و «جوني».

– هذا عمل طائش يا عزيزتي.

– لا بديل لديّ. «مرتا» ترغب في أن أبقى مع «ديرميد» هنا فترة بقائها في المستشفى وقد وافق «ليماند».

– فهمت، لكن إياك أن تصممي على البقاء هنا إلى الأبد. ثم التفتت إلى «ديرميد» قائلة:

– أهلا يا صغيري، هل تأتي معي لتلعب مع «لورنا» و «إيوان»؟ لديهما ألعاب عديدة، ونشرب الشاي برفقتهما. ما رأيك؟

– أذهب معك فقط إذا حضرت «ساندي» برفقتي؟ ثم أمسك بيد «ساندي» متعلقًا بها. سألت «هيلين» «ساندي» أخيرًا:

– فكرة جيدة، هل ترغبين في الحضور؟ والدتي تستقبل اليوم بعض السيدات لتناول الشاي. يمكنك الانضمام إليهن. إنه تغيير وأفضل من مسح الغبار عن الكتب القديمة والوقوع من على السلم. كانت «هيلين» تشير إلى أنها لا تصدق القصة التي شرحها «ليماند».

– عليّ أن أسأل «جوني» إذا كان بإمكانه أن يجمع البيض بدلا مني.

– أسرعي، اسأليه ثم غيري بنطلونك والبسي ثوبًا أو تنورة؛ لأن جدتي ستكون في «بروكفيلد» وهي متحفظة وتحب الشكليات. إنها تصرّ على أن

تحضر النساء لتناول الشاي بأثواب أو تنانير وتحب «مرتا» لأنها على حسب تعبيرها سيدة، ولا أحب أن تخذليها.

أسرعت «ساندي» تفتش عن «جوني». رضي أن يقوم عنها بمهمة تجميع البيض. غيرت ملابسها. لبست بلوزة كتانية خضراء اللون، أكمامها طويلة، وقبتها مفتوحة، مع تنورة واسعة خضراء اللون. مشطت شعرها بسرعة. قالت في نفسها: «كم هي مقرفة، «هيلين»، ماذا تعني أن بقائي لوحدي مع «ليماند» ليس عملاً حكيمًا؟ ثم، كيف تطلب مني عدم التفكير في البقاء هنا لوقت طويل، لا بد من أنها تشك في تصرفاتي، بل إنني متأكدة أنها تسيء الظن بي... إن الوضع الذي رأتني فيه لايترك مجالاً للشك. ثم إن هناك شهرة آل «كالدويل» في هذا الميدان بالذات تعزز الظن بي... يحق لـ «هيلين» أن تعتقد أن علاقة غير شريفة تربط بين «ليماند» والمربية... هذا ظلم. فقط لأنها فتاة عزبة تعيش وحدها في منزل «ليماند كالدويل» ستتعرض لأن يلوك الناس سمعتها، وتلاحقها الإشاعات والأقاويل».

رمت الفرشاة من يدها. حملت حقيبتها ومشت إلى خارج الغرفة. ركبت مع «ديرميد» في سيارة «هيلين» الجديدة في طريقهما إلى «بروكفيلد».

– اشتريتها البارحة. إنها تشعرني بالاستقلال والحرية. سأدخل شريكة مع الدكتور «باركر» في «كيركتون» وسأذهب في نهاية الشهر. عندما كنت أدرس الطب كنت أتمنى أن أعود لأمارس المهنة هنا في منطقتي حيث جذور عائلتي. وأخيرًا تحقق حلمي، هل زرت «بروكفيلد» من قبل؟

– لا، لكن «مرتا» أخبرتني بأنه منزل فخم.

– هو كذلك. جدّي بناه ليتقاعد فيه. كنا نعود إليه في العطل من «غلاسكو». وكان جدّي شريكًا في مصلحة نقليات ناجحة وقد ورث والدي حصته في الشركة. وبعد وفاة والدي تولت والدتي مركزه في الشركة وبرهنت على تصميم وعقل راجح في أمور العمل.

كان المنزل مزودًا بأفضل الرياش والأثاث ويحتوي على جميع الأدوات العصرية التي من شأنها أن تجعل السكن مريحًا وسهلاً. كان المنزل نظيفًا ومرتبًا للغاية مما يدل على وجود خدمة يومية وصيانة فعلية لكن «ساندي» لم تشعر بالدفء والحنان، وروح الألفة والمحبة التي أحستها في منزل

«دانكريغان».

«آدا لندسي»، والدة «هيلين» وأرملة «ستيوارت»، تشبه «هيلين» في برودها ونضارتها. شعرها الرمادي مصفف بتموجات بسيطة وعيناها الزرقاوان فيهما جمود. تلبس تنورة مكسرة وفوقها بلوزة وكنزة من اللون نفسه، بسيطة في أناقتها.

– أنت لا تشبهين «مرتا» أبدًا. اجلبي الصغير إلى القاعة ليلتقي حماتي ثم يذهب ليلعب مع «لورنا» و«إيوان» في غرفة اللعب.

«غريس لندسي» الجدّة، على عكس كنتها «آدا»، تتميز بروح النكتة. النمش يكسو وجهها مثل حفيدها «بيل». عيناها الرماديتان فيهما مكر وذكاء. ربتت «غريس» شعر «ديرميد» الأسود وقالت وهي تتفحصه:

– لم أعتقد قط أنني سأعيش لأرى حفيد «فيليدا كالدويل» مرحبًا به في منزلي. هو يشبهها أليس كذلك يا «آدا»؟ قالت «آدا»:

– أظن أنه يشبهها. لم أدقق في تقاطيعه بعد. تعالَ معي يا «ديرميد» إلى غرفة الأولاد. أمسك «ديرميد» بيد «ساندي» كأنه شعر بأن «آدا» ليست صديقة. أصرّ «ديرميد» قائلاً:

– تعالي معي يا «ساندي».

– سآتي. قالت «ساندي» لـ «آدا»:

– أظنه يشعر بأنه غريب هنا. سيتحسن عندما يصبح في غرفة اللعب مع «لورنا» و «إيوان».

– حسنًا، لكن أرجو ألا يتعلق بك كثيرًا. سيأتي اليوم الذي تعودين فيه إلى بلدك، أليس كذلك؟ لا أومن أن يترك الولد على هواه، ليستطيع تحمل ألم الفراق وخيبات الأمل أكثر عندما يكبر.

كانت «ساندي» تود أن تبدي رأيها في هذه المسألة التربوية ولكنها فضلت أن تصمت. دخلت معه غرفة اللعب. رحبت «لورنا» و«إيوان» أشدّ الترحيب بـ «ديرميد». نسي لفوره تحفظه وانخرط يلعب معهما. كانت الآنسة «دوبي»، المربية، معهم في الغرفة. تكلمت «ساندي» معها قليلاً ثم عادت إلى غرفة الاستقبال بعد أن اطمأنت على أن «ديرميد» يلهو مع «لورنا» و «إيوان».

حضرت بعض النسوة للشاي. جلسن يثرثرن. عرفتها «هيلين» إليهن. جلست

«ساندي» قرب امرأة متوسطة العمر. قالت:

– التقتك ابنتي في فندق «كريغان». كنت مع «رون كارسن». أخبرتني بأنك ضيفة في منزل «دانكريغان» لرعاية ابن «كروفورد» الصغير. أحست «ساندي» بأن كل العيون اجتمعت عليها.

– هذا صحيح. قالت إحدى النساء الجالسات قربها:

– كيف تمضين وقتك هناك؟ أخبروني بأن المنزل بال قليلاً والجميع يقول إن «نان كوري» لا تحسن تدبير المنزل. قالت «ساندي»:

– أحب العيش هناك. المنزل له ميزات وسحر عجيب. وقالت امرأة أخرى:

– ربما وصفك هذا ينطبق على مالكه الحالي، أليس كذلك؟وضحك الجميع على تعليقها. احمر وجه «هيلين» ونظرت إلى «ساندي» لترى ردّة الفعل لديها. سألت امرأة في الطرف الآخر من القاعة:

– كيف هي «نان» في هذه الأيام؟ لقد تغيبت عن اجتماع المجلس الريفي الأخير بسبب المرض. أجابت «هيلين» بالنيابة عنها قائلة:

– إنها مسافرة، في «سكاربورو». أليس كذلك يا «ساندي»؟ تنبه الجميع إلى الموضوع الدسم المطروح ورغبن في المزيد من الثرثرة حوله.

نظر الجميع إلى «ساندي»، بعضهن بتعجب والبعض الآخر بمكر وخبث. كانت نظرات «آدا» وما فيها من جمود أكثر ما أرعبها. على الفور أتت «غريس» لمساعدتها، غيرت موضوع الحديث بلباقة وأنقذتها من ألسنة النساء الثرثارات وقفل موضوع منزل «دانكريغان» ومالكه. لم تشعر «ساندي» براحة وهي وسط هؤلاء النسوة. اغتنمت فرصة وقوف بعض النسوة للرحيل ودخلت غرفة اللعب.

كان «بيل» قد وصل لتوه وبدأ يمرح مع الأولاد بصخب. طلبت منه السماح لها ولـ «ديرميد» بالرحيل. قال:

– اتركي «هيلين» مع الزوار. سآخذك بنفسي وسيذهب الأولاد برفقتي في نزهة صغيرة. ودعت «آدا» «ساندي» على المدخل قائلة:

– عودي مرّة ثانية. لم نتحدث بما فيه الكفاية. عودي إلى زيارتنا متى تشائين. بقاؤك موحش لوحدك في غياب ابنة خالك في المستشفى. ثم التفتت

إلى «بيل» وقالت:

– ما رأيك لو نهتم بـ «ديرميد» في غياب «مرتا»؟ ثم حين تخرج «مرتا» من المستشفى تمضي فترة النقاهة هنا. تستطيع أنت رعاية مريضتك وتعود «ساندي» إلى «إنجلترا». سألها «بيل» وهو ينظر إليها نظرة ماكرة:

– هل ترغبين في العودة إلى بيتك؟

– ليس هناك ضرورة قصوى لذلك. «مرتا» تعرف أنني سأبقى هنا قدر ما ترغب. تعجبت «ساندي» لماذا تصر «آدا» على رحيلها؟! وقالت «آدا»:

– أعرف ذلك، لكنني لا أريدك أن تبقي وحدك في منزل «دانكريغان» في غياب «نان». أظن أنه لم يخطر ببالك أن الناس هنا رجعيون ومحافظون. كل شيء مخالف للعرف يثير الإشاعات. سأتركك... فكري فيما قلته لك. مع السلامة. وبعد أن ركبت «ساندي» سيارة «بيل» سألته بعصبية ظاهرة:

– هل يمكنك أن تخبرني لماذا أمك وبقية النساء بالهن مشغول لأنني أسكن لوحدي في منزل «دانكريغان»؟

– ما سمعته مؤخرًا من والدتي، هي لا تحبذ بقاءك مع «ليماند»، محافظة على سمعتك وأخلاقك.

– كنت أعرف أن هذا هو السبب. هذا ليس من العدل بشيء. نظر إليها بطرف عينيه. قال «بيل» بصوت جاف:

– نساء ورجال آل «كالدويل» معروفون بعلاقاتهم غير الشرعية مع الجنس الآخر.

– تقصد «فيليدا كالدويل» التي ذهبت في رحلة بحرية مع والدك؟ لم يتقدم أحد غيرها لمصاحبته في تلك الرحلة المشؤومة. لسوء حظها غرقت معه... ثم «نان كوري» عاشت سنين مع «كافن» تدير منزله.

– تمامًا، أنت ذكرت الحقائق كما وردت ولم تنظري إلى أبعادها وخلفياتها. العديد من الناس ينظرون إلى ماوراء الحقائق ويفضلون ما يثير لعابهم أكثر لينهشوا بألسنتهم، وإذا لم يجدوا ما يثير، يقترحونه. وبسرعة تنتشر الإشاعات وتدور، والكل يقبل بها كحقيقة راهنة مسلم بها. الإشاعات حطمت سمعة أبي وكذلك سمعة «فيليدا كالدويل»... لقد أهملت قصة «ليماند» والتي لم تكن ترتكز على ذرة من الحقيقة. قالت «ساندي»:

– كل ما أعرفه أن اللوم وقع عليه لشيء فعله شقيقه «كروفورد».
– إذن، سمعت هذه الإشاعة أيضًا. يستطيع «ليماند» الآن أن يصحح نظرة الناس إليه ويبيض صفحته. سألته وهي واثقة بأنها تقتنص معلومات قد منعت عنها:
– هل يمكنك أن تخبرني بالقصة؟
– أحد التوءمين كان على علاقة غرامية بسيدة متزوجة. المجتمع مغلق والكل يلاحظ أي شيء من هذا القبيل كما أن المرأة كانت من النوع الذي يتباهى بغرامياته. وزلق لسانها يومًا وذكرت اسم «ليماند» ودارت الإشاعة وأصبحت حديث المنطقة كلها. قالت «ساندي»:
– لقد استعمل «كروفورد» اسم أخيه، يوم كان يلقاها.
– هي ليست الوحيدة التي خدعاها بهذه اللعبة. حتى أختي «هيلين» لم تسلم من حيلتهما تلك.
– كان على «ليماند» أن يذكر الحقيقة.
– أعرف، لكنه لم يفعل لأن أحدًا لم يطلب منه ذلك. لقد وصمه الناس بهذا العمل الأسود بعد أن غادر المنطقة إلى «كندا». اعتقد الجميع أنه غادر بسبب تلك الإشاعة. الحقيقة أنه غادر المنطقة بعد مشادات عاصفة مع والده. واتهمه الناس بالجرم غيابيًا.
– أخبرتني «نان» بأن سبب المشادة مع والده كانت بسبب إدارة مزرعة «دانكريغان».
– إنها على حق. كان «ليماند» يحب الزراعة وأعمال المزرعة. قال لي مرّة إنه يزعجه أن يرى المزرعة تسوء وتبلى من سوء إدارتها. وهو على حق في ذلك. ويعرف أنه سيرثها يومًا ما. كان توقيت المشادة خطأ. الجميع اعتقد أن والده سمع بعلاقة ابنة الغرامية مع «مي برجيز» فطرده من المنزل.
– وكيف عرفت أنت أن «كروفورد» وليس «ليماند» هو الذي كان على علاقة مع «مي برجيز»؟
– عرفت بها بطريق المصادفة، قبل سنين قليلة. كنت في نزهة بحرية. نزلت قرية صغيرة لأشرب قليلا. كان «كروفورد» هناك. تكلمت معه. كنت على وشك الخروج حين دخلت «مي برجيز» مع بعض أصحابها. لم نرَها منذ

انتقلت، بعد افتضاح أمرها مع زوجها من المنطقة، منذ سنين عديدة. رأت «كروفورد» واقتربت منه تحدثه. سألته ماذا فعل منذ مغامرتهما الصغيرة...؟ رأيت أنه لم يفاجأ أو يرتبك أو يداري. ولما تركته، سألته:
– أنت صاحب العلاقة غير المشروعة وليس «ليماند»؟ نظر إليّ ثم قال وهو يضحك:
– لقد سلمت نفسي. ماذا ستفعل بهذه الخبرية؟ هل ستخبر «هيلين» بها؟
قال «ساندي»:
– لماذا سألك عن ذلك؟
– في تلك الأثناء كان زواجه بـ «هيلين» محتمل. كانت «هيلين» صديقة للتوءمين. أصدقاء طفولة. ولما لم أجب عن سؤاله قال لي:
– أخبرها: أنا لا أهتم بهذا الأمر. لقد مرّ الزمان على هذه الحادثة وقد نسيها الناس. حتى لو أعلنتِ ما عرفتِه الآن لن يصدقكِ أحد... قال ذلك وغادر المقهى.
– هل أخبرت «هيلين»؟
– لا، أخبرت والدتي. ويا ليتني لم أفعل. أتت كالسهم إلى «دانكريغان» وقابلت «كافن» وأطلعته على الحقيقة وأخبرته رأيها بـ «كروفورد» كمرشح ليكون زوجًا لابنتها... «كافن» رجل كبير وغريب الأطوار وقد نالت هذه القصة من كبريائه وخصوصًا من حبه الكبير لـ «كروفورد». ساءه أن ابنه المفضل ترك شقيقه يلام على ما فعله هو. وحدثت بعد ذلك مشادة أخرى طرد على أثرها الابن الثاني. وأقسم والده أنه لن يسمح له بالعودة ولقد نفذ قسمه... انزعجت «هيلين» كثيرًا لغياب «ليماند» ورحلت بدورها إلى «أمريكا الجنوبية». أنهى «بيل» القصة وكان قد وصل بسيارته إلى المنزل حيث وقف ينتظر نزول «ساندي» و «ديرميد». قالت «ساندي»:
– شكرًا على هذه المعلومات التي ذكرتها لي. عليّ أن أدخل. قال «بيل»:
– مع السلامة. كنت دائمًا أقول إن «كروفورد» وليس «ليماند» هو الذي كان على علاقة غير مشروعة مع «مي»... الآن بعد عودة «ليماند» واجتهاده المثمر في «دانكريغان»، أظن أننا يجب أن نمنحه الفرصة ليعيش مرفوع الرأس. الإشاعات السابقة حول ماضي آل «كالدويل» كانت هدّامة، ولم يستمعوا إلى

ما كان يقال عنهم.

– نعم، أعرف ذلك. ما يزال «ليماند» يحمي أخاه ولا يرغب في أن يعرف الحقيقة أحد.

– كان «ليماند» حسن السيرة دائمًا. يساعد «كروفورد» على حلّ مشاكله. كان الأقوى بينهما. وطلبت «فيليدا» منه أن يرعى أخاه وقد أصبح ذلك عادة لديه. أما بشأن ما قالته والدتي، فإنها لا تقصد إلا الخير. إنها لا تحب أن يلوك الناس سيرتك ولا سيرة «مرتا». ثم لا ترغب في أن يسيء أحد من آل «كالدويل» إلى «هيلين» مرّة ثانية.

– وهل يستطيع «ليماند» أن يسيء إلى «هيلين»؟

– لقد أساء إليها مرّة يوم تركها وسافر إلى «كندا». حولت حينئذ عواطفها كلها إلى «كروفورد» ولكنه تركها ورحل أيضًا. اليوم عاد «ليماند» وهي تتمنى أن تعود المياه إلى مجاريها بينهما وذلك يكون أسهل دون إشاعات جديدة وثرثرة وأقاويل عنه.

– إذا بقيت هنا ستثار الإشاعات؟

– نعم، أفضل حلّ هو أن تخبري «ليماند» بعزمك على الرحيل وهو يتصرف.

دخلت «ساندي» المنزل. لم يكن «جوني» ولا «ليماند» هناك. أحمّت «ديرميد» ووضعته في فراشه ثم نزلت إلى المطبخ. كان قد وصل لتوه «جوني» ومعه «رون كارسن» الذي قال لـ «ساندي»:

– جلبت لك الصور الفوتوغرافية. ستعجبك وستجدينها مثيرة. كانت ثلاث صور أخذت للمنطقة من الطائرة. الصور مكبرة وواضحة جدًا. تفحصتها «ساندي» بعين خبيرة وتأكد لديها بما لا يقبل الشك أثر مدينة «سلتيه» في التلة خلف المنزل. ظهر لها واضحًا آثار مدورة تلف قاعدة الحصن بما يشبه الخندق. شرحت «ساندي» رأيها بحماس لـ «رون» و «جوني». قال «رون»:

– تستغرق الحفريات هناك أسابيع من العمل الشاق ولا يمكنك القيام بها وحدك بل تحتاجين إلى مساعدة تقنية.

– أنا لا أستطيع الحفر بمفردي. أحتاج إلى فريق من الخبراء في التنقيب. فقط أستطيع الآن أن أتعرف إلى الموقع وأحدده. ربما أبدأ الحفر في سطح الأرض فقط حيث لا توجد مزروعات. وربما أجد شيئًا. شكرًا يا «رون» على الصور.

سأل «رون»:

– هل من الممكن أن يبقى «ديرميد» في رعاية «ليماند» وتذهبين معنا إلى الرقص هذا المساء؟

– لا أمل البتة. لن يفعل!

– هل ذهب لزيارة زوجة أخيه في المستشفى؟ لو تستطيعين سماع الإشاعات بين الناس. الجميع يتساءل عمن ستكون السيدة الجديدة في منزل «دانكريغان»، «مرتا» أم «هيلين»؟ هل تعرفين من؟

– لا، لو يكف الناس عن ثرثرتهم.

– كأنك تطلبين من الأرض أن تكف عن الدوران. ثم أكمل:

– سمعت أيضًا أن هناك مجهولة مرشحة لأن تكون السيدة الجديدة للمنزل، فتاة صغيرة لا خبرة لها... قال «رون» وهو يضحك ويغمز بعينه. ضحكت «ساندي» قائلة:

– «جوني»، أرجوك أخرجه من هنا قبل أن أضربه.

– سأرحل. آسف لأنك لا تستطيعين مرافقتنا الليلة. ربما نأخذ الصغير معنا في نزهة بحرية غدًا نبدأ مع المد ونذهب إلى «وستبور» نسبح هناك ونعود مع الجزر.

– لا بأس إذا كان الطقس مناسبًا لهذه النزهة البحرية.

أعادت «ساندي» النظر إلى الصور مرّة ثانية. الحفريات التنقيبية إن تمت ستبرهن على أن «كافن» كان على حق في نظريته بأن «دانكريغان» كانت مركزًا حضاريًا قبل أن يحضر السير «غاي» ويضم إليه هذه الأراضي. زاد حماسها. تمنت لو كان «كافن» حيًا ليرى صحة نظرياته. قررت أن تكتب إلى «ديريك سلون» وتخبره باكتشافاتها بهذا الصدد. كانت رسالة طويلة شرحت له بالتفصيل اكتشافاتها واستنتاجاتها وأشركته في قصة «دانكريغان» التاريخية.

تركز أملها كله في الحفريات لعلها تجد بعض البقايا الفخارية أو دبوسًا آخر للزينة. ثم عليها زيارة قبو الحصن والسجن فيه، وأن تمشي في النفق الذي يوصل الحصن بالشاطئ والذي استعمله المهربون، وعليها ترتيب المكتبة...

انتهت من كتابة الرسالة ثم عادت إلى غرفتها تطالع المخطوطات عن تاريخ

«دانكريغان». وصلت إلى الحروب بين «إنجلترا» و «اسكتلندا» زمن «روبرت بروس». فارسًا في «دانكريغان» حليفًا لملك «اسكتلندا» الذي كافأه بالأراضي والمزيد من السلطة. قصة غرامية جانبية تقول إن فارس «دانكريغان» أحبّ ابنة أحد السجناء الإنجليز لديه... وقد انتهت القصة الغرامية نهاية سعيدة بالزواج. مرّة ثانية رأت حلمها يتكرر، الفارس الأسود نفسه ينقذها من الأخطار. هذه المرة كانت تركض على الرمال قرب المصب ترغب في العودة إلى «إنجلترا». بدأت تغرق في المصب. وصلت المياه إلى أكتافها وكادت أن تغمرها. حضر فجأة الفارس الأسود وأمسكها من شعرها وخلصها. قامت من نومها مذعورة. كانت مبللة بالعرق. فتحت نافذتها فإذا بالشمس الوردية تملأ السماء بنورها.

نزلت مع «ديرميد» إلى المطبخ من أجل الفطور. كان «ليماند» مايزال يجلس على كرسيه، منطويًا على نفسه في تفكير عميق. حين رأته تذكرت حلم الليلة الماضية. تعجبت: «لماذا تحلم به دائمًا؟!» زادت ضربات قلبها. رغبت في أن تترك المطبخ وتهرب منه. لكن لماذا تتصرف على هذا النحو؟! إن تصرفاتها تشبه تصرفات مراهقة في أول معرفتها بأحاسيس الحب...

حاولت أن تتصرف باتزان. ثرثرت معه عن اكتشافاتها بعد أن رأت الصور الفوتوغرافية التي جلبها «رون». قالت له إنها جازمة الآن بوجود ركام خلف التلة في «دانكريغان». استمع إليها يراقب حماسها وتعابير وجهها. كان نظره جامدًا خاليًا من أي تعبير.

– ماذا ستفعلين؟ هل ستحفرين؟

– لا أعتقد أنني أستطيع ذلك وحدي. أحتاج إلى خبراء في التنقيب والمصاريف كبيرة. أحتاج إلى فريق عمل يساعدني. يمكنني الآن أن أحدد موقع الحفريات. أظن أن جمعية التنقيب عن الآثار المحلية تحضر وتطلب السماح لها بمسح المنطقة من أجل التنقيب فيها..

– لا، لا أريد غرباء هنا يحفرون. سيتلفون المزروعات. ثم أنت تعرفين رأيي في أن أدفن الماضي ولا أنبش فيه. قال ذلك بعصبية ظاهرة. كأنه لم ينم الليل بطوله من كثرة التفكير. قالت «ساندي»:

– حسنًا؛ ما الذي يمكنها أن تفعله فالأرض أرضه وهو حر التصرف. كانت

خيبة أملها كبيرة.

– ألن تحضر السيدة «برودي» لا اليوم ولا غدًا. علينا أن نذهب إلى «كيركتون» لنشتري مؤونتنا للأسبوع المقبل ثم نتغدى سويًا في الفندق وتزوري «مرتا» بعد ذلك. قال ذلك بسرعة.

– لن تزورها أنت؟ ضحك لأنه تذكر توصياتها له في اليوم السابق وقال:

– ربما. أخبريني، كيف كانت زيارتك إلى «بروكفيلد» البارحة؟ هل استمتعت بوقتك وتعلمت الكثير عن تاريخ عائلة «كالدويل» الحديث وخصومتهم مع آل «لندسي». لا بد من أن «هيلين» و «آدا» لديهما الكثير لإعلامك به. نظرت إليه. رأت الفرصة مؤاتية لتخبره باقتراح «آدا» بشأن بقاء «ديرميد» عندهم وأسباب الاقتراح. كانت واثقة بأن القصة ستثير غضبه. كان صوتها منخفضًا حين بدأت قائلة:

– في الحقيقة، إن «بيل» هو الذي أخبرني بالقصة عندما كان يوصلني مع «ديرميد» بسيارته إلى المنزل. اتهمها مجددًا:

– وهل تصيدت المزيد من الأخبار؟

– كلا، ليس عن قصد. أخبرني بغراميات «مي برجيز»، وكيف عرف هو أن «كروفورد» هو الذي تورط معها وليس أنت. وكيف أدى ذلك إلى الشجار بين «كروفورد» ووالدك حيث طرده من المنزل.

– إنها أخبار قديمة ولا أجد نفعًا في تحريكها من جديد؟ على «بيل» أن يغلق فمه. لماذا أخبرك بهذه القصة؟

– رغب في توضيح شيء قالته لي والدته قبل مغادرتي منزلها... كم هو بشع! لقد اكتشفت أنني أصبحت موضوعًا دسمًا لثرثرة نساء البلدة.

– بما أنك تعيشين في «دانكريغان»، حتمًا ستصبحين موضوعًا لأقاويلهم. أخبريني ماذا قيل عنك؟

– البارحة كان عند السيدة «لندسي» سيدات لتناول الشاي. شعرت من أحاديثهن بأن وجودي في «دانكريغان» في غياب «نان» و «مرتا» يجعلني هدفًا لإشاعاتهن. كما أن «هيلين» ووالدتها أكدتا لي أن عليّ مغادرة البلد إذا كنت أرغب في ألا يتكلم الناس عني.

– فهمت الآن، سبب قصة «بيل» إنه يؤكد لك أن اسم «كالدويل» موصوم

بالسواد وكل من يرتبط بنا سيصاب من سوادنا.

– قال «بيل» أيضًا إنه لحسن حظك أنك كنت خارج المنطقة يوم وقعت التهمة عليك. قالت «ساندي» ذلك ثم نظرت إليه فإذا هو كبركان من الغضب على وشك الانفجار. قال بحزم كأنه يتلو نشرة الأخبار:

– ما علاقة آل «لندسي» بالموضوع؟ ما همهم إن كانت «نان» هنا أم لا؟ ليس من شأنهم أن يراقبوا ما يحصل في منزلي ومن أدعو للبقاء عندي. الآن بدأت أفهم ما كان يدور في خلد «هيلين» البارحة. رأتنا نعانق بعضنا ليلا يوم الحادث ثم رأتنا البارحة على الأرض في وضع غير عادي ولأننا وحدنا في المنزل، استنتجت فورًا أننا نعيش قصة غرام ملتهبة.

– شيء من هذا القبيل. كبرياء «كالدويل» وغضبه عادة تختفي وراء برودة وعدم اكتراثه. أما اليوم فكان «ليماند» لا يخفي شيئًا من طباعه.

– يا للنساء الثرثارات! لا عمل عندهن سوى تمزيق وتقطيع سمعة فلان أو فلانة. آسف لما يحصل لك يا «ساندي» بسببي. أخبريني ما هو اقتراح «آدا»؟ أعتقد أن لديها خطة لتتخلص منك بسرعة. كان يتكلم بشكل يكشف عن كرهه الشديد لـ «آدا لندسي».

– اقترحت أن يبقى «ديرميد» عندهم لحين خروج «مرتا» من المستشفى، ترعاه السيدة «دوبي» مع ولديهما. وأعود أنا إلى «إنجلترا» وعندما تخرج «مرتا» من المستشفى تمضي فترة النقاهة عندهم حيث يرعاها «بيل» كونها مريضة. وحتى لا تبقى أيضًا وحدها معك في المنزل. أكملت «ساندي» تحول «ليماند» إلى برج من الغضب. جميع عضلات وجهه برزت. ربما كان والده في حالة غضب مشابهة يوم طرد ولديه من المنزل... وحين عاود الكلام معها كان قد استجمع هدوءه من جديد.

– إنها شهامة من «آدا»، أليس كذلك؟ كيف كان وقع الاقتراح على «بيل»؟

– طلب مني أن أنقله لك. يعتقد أنك ستفعل شيئًا لوقف الإشاعات والأقاويل.

– هو قال ذلك؟ وأنت، هل ترغبين في العودة إلى «إنجلترا» وتحافظين على أخلاقك وفضائلك من الشيطان؟ يعتقد الجميع هنا أن «ليماند كالدويل» شيطان أسود معتم. ضحكت «ساندي» من وصفه لنفسه وتأكدت أنه فهم

الوضع كله. وقالت:

– إنني أفهم الماضي وأهتم به ولكنني أعيش في النصف الثاني من القرن العشرين. أنا لا أعتقد أنك ستعتدي على فضائلي... لكن إذا كان رحيلي يساعد على عدم تلطيخ اسمك بالمزيد من السواد فسأرحل. ثم إن هناك رأي «مرتا» في هذا الموضوع. لقد وعدتها بالعناية بابنها في فترة بقائها في المستشفى ولن أتركها قبل أن تجد بديلا عني.

– سأزور «مرتا» بعد الظهر. حان الوقت لأتكلم وإياها بصدق. كنا نحور وندور حول الموضوع. كوني جاهزة في العاشرة لنذهب إلى «كيركتون». لم ينتظر منها جوابًا على أوامره. بدأت تنظف الطاولة.

تساءلت «ساندي» في نفسها: «أخيرًا تحرك «ليماند» من أجل مستقبل الصغير. هل اقتراح «آدا» ليعيش مع آل «لندسي» هو السبب؟ هل سيطلب من «مرتا» أن تتزوجه؟» تذكرت ما قاله عن «مرتا» في المكتبة واستبعدت هذا الأمر. وإذا أصرّ على طلب الزواج بها على الرغم مما قاله عنها عندئذ سيغضب «هيلين»...

المدينة مليئة بالسيّاح والمزارعين للتسوق. ذهبت وإياه إلى السوبر ماركت حيث ملأ العربة بأنواع عديدة من الأطعمة والمعلبات. كان يعرف تمامًا ما يريد. ويستفيد من التخفيضات المعلنة هنا وهناك على بعض الأصناف. أنهى مشترياته بسرعة كبيرة ووضعها في صندوق سيارته وأكمل طريقه معها ومع «ديرميد» إلى الفندق. كان يسلم على أصحابه ومعارفه ولم يعرفها إليهم. كانت تراقب معارفه ينظرون إليها بطرف أعينهم. ربما هو على حق بذلك... إنه يخفف الأقاويل حولها. غرفة الطعام في الفندق كانت مليئة، تقريبا. مروا بسيدة عجوز بادرتهم قائلة:

– أنت أرملة «كروفورد» وهذا هو ابنك الصغير؟! صحح «ليماند» لها معلومة وقال:

– هي ابنة عمة زوجة أخي. ثم عرفها إلى السيدة واسمها السيدة «غرانت».

– نعم، سمعت «جوني كوري» و «رون كارسن» يذكرانها. كانا في منزلنا مع ابنتي منذ أيام. كنت ستحضرين معهما ولكنك تركت المرقص وعدت إلى المنزل مع «ليماند». قالت السيدة «غرانت» ذلك وغادرت غرفة الطعام

وتركتهم. كان «ليماند» يخاطبها بألم ومرارة وهو يقرأ لائحة الطعام قائلا:

– من تعليقات بريئة كتلك، يقولها «جوني» و «رون» دون قصد، تنطلق الإشاعات وتحاك الأقاويل، وبالتالي يسيء الناس إلى سمعة فلان وفلانة. لقد قاست أمي كثيرًا من الإشاعات وبالطريقة نفسها. قالت «ساندي»:

– من المؤسف أن لا حول لنا ولا قوة في إسكاتها.

– يمكننا أن نقف في ساحة المدينة ونصرخ بصوت مرتفع ونقول: الكل يرتكب أغلاطا. ثم نقول لهم: نحن فقط أصدقاء ولسنا عاشقين! سألته وقد احمرت وجنتاها خجلا رغمًا عنها قائلة:

– وهل نحن أصدقاء؟

– لقد فرضت علينا الصداقة في ظروف مثل ظروفنا. فقط أنا وأنت نعرف الحقيقة، نحن حلفاء. تذكرت «ساندي» ما قالته «نان» عن «فيليدا» و «ستيوارت»، إنهما لوحدهما يعرفان حقيقة علاقتهما... وقد غرقا سوية وبموتهما ضاعت الحقيقة. ارتجفت «ساندي» قليلاً وهي تتذكر. كان «ليماند» يراقبها عن كثب. فسألها:

– ما الذي حصل؟

– كنت أفكر في «فيليدا» و «ستيوارت»... ثم تلهت بالنظر إلى لائحة الطعام. مال «ليماند» إلى الطاولة وكلمها بصوت منخفض حتى لا يسمعهما أحد وقال:

– يمكننا أن نفعل شيئًا مذهلاً ومتطرفًا ولكنه يضع نهاية للإشاعات والأقاويل ولو لفترة قصيرة. كان يخاطبها وعيناه تشعان بالمكر:

– لا أظنك ستوافقين. أنت غير مستعدة لهذه الخطوة بعد.

– كيف تقرر إذا كنت أوافق، أم لا أوافق إذا لم تخبرني؟

– أقول لك الحقيقة، أنا لا أجرؤ. ستتهمينني باللؤم وستغضبين وربما تنسحبين من هنا في ثورة غضب وأنت تعتقدين أنك قد أهنت. سألته بعد أن لمست نظرة حنان تلفها:

– تقول نحن أصدقاء؟ يمكنك أن تخبر صديقتك بكل شيء.

– بالطبع، أنت صديقة. سأضع صداقتنا الجديدة الملفقة في الاختبار. هناك طريقة وحيدة ومؤكدة لوضع حد للإشاعات المدمرة حول علاقتنا وهو أن

نعلن خطبتنا للجميع. حضرت خادمة المطعم وطلب «ليماند» الطعام له ولها وللصغير دون أن يسألها. لم تجادله. كانت ما تزال تستجمع رباطة جأشها. سألها «ليماند» بعد أن ابتعدت الخادمة:

– ما رأيك؟

– كما تقول، إنها خطة متطرفة نوعًا ما.

– لكنها فعالة.

– ربما.

– إذن توافقين! كان خبيرًا في الإقناع.

– لا، لا أوافق. لا أستطيع. إنها لا تنفع إلا لفترة قصيرة. كما تعلم سأبقى هنا أسابيع قليلة لحين تخرج «مرتا» من المستشفى... ثم ماذا ستقول «مرتا»؟

– لا يهمني ماذا تقول. لو لم تحضر إلى هنا دون دعوة... لو لم تدعك إلى هنا دون استئذان... لم يكن ليحصل ما حصل.

إنه يؤلمها بكلامه الجارح. الحقيقة تؤلم. هو على حق. «مرتا» لم تهتم بأمره حين حضرت إليه مع ابنها وهو لن يهتم بأمرها. ثم لو لم تأتِ إلى هنا لما تعرفت إلى «ليماند» ولما أحست بلحظات سعيدة نادرة في ضوء القمر، ولم تكن لتكتشف قط السعادة في أن تجد من يعاملها كامرأة بدلاً من كونها شيئًا لا جنس معين له. والأهم من كل ذلك كونها كسبت صديقًا جديدًا...

قالت مهمومة:

– أعتقد أن «مرتا» كانت تمني نفسها بأن تطلبها للزواج. لو تطلب منها الزواج لحصلت أيضًا على النتائج المرجوة ذاتها. عيناه السوداوان رمقتها بنظرة شفقة على صغر عقلها وذكائها المحدود. وقال:

– قلت لك البارحة إن حساباتك كلها خاطئة. «ليماند» ليس الاسم الوحيد الذي يبدأ بحرف «ل» أنت على صواب في أن «مرتا» ترغب في الزواج مرّة ثانية من أجل التأمينات التي يكفلها لها الزواج. لن تتزوج هذه المرّة من «كالدويل». إنها تطمح برفاهية وراحة واستقرار أكثر من حبيب ردي، السمعة مثلي. لقد اختارت شخصًا مختلفًا هذه المرّة. شعره أحمر وليس أسود. سمعته العائلية نظيفة. غني يستطيع أن يتحمل مصاريف بذخها. سقفه لا يرشح واسم عائلته يبدأ بـ «ل». إنه «بيل لندسي». هذه هي الصدمة الثانية

لـ «ساندي» هذا اليوم. استردت أنفاسها بصعوبة وقالت:
– كيف عرفت أنها ترغب في الزواج بـ «بيل»؟ عيناه السوداوان تسخر منها.
ترك صحن الحساء ليقول:
– أنا أيضًا أستطيع أن أجمع اثنين مع اثنين وجوابي أربعة. أعرف أن «بيل» لن يتقدم ليطلبها للزواج قبل أن يطمئن إلى أنني سأتكفل بمصاريف تعليم «ديرميد». كنت أتمهل في قراري لنهاية الصيف. اليوم، وبعد أن بدأت ألسنة الإشاعات تطالك أجبرت على العجلة. توقف وكأنه يتسلى وأكمل:
– ولكن كيف أتخلى عنك يا جميلتي الساحرة؟ عليّ أن أسرع لإنقاذك من جديد... عليّ أن أسألك الموافقة على إعلان خطبتنا. نظرت إليه «ساندي» وهي مذهولة مما سمعت. نسيت صحن الحساء أمامها. لم تعد تسمع الأصوات حولها في غرفة الطعام. كانت ترى فقط العينين السوداوين الباردتين لفارس «دانكريغان» ينظر إليها نظرة مكر وسخرية. أحس «ليماند» بارتباكها وهي تسمع صدى صوته وهو يكرر عليها اقتراحه بأنهما مخطوبان للزواج.
– لكنني لا أوافق على الخِطبة.
– حتى ولا من أجل «مرتا» كي تحصل على رغباتها؟
– لا أدرى كيف ستساعدها هذه الخطبة على الحصول على رغباتها!
– إنها تمكنها من الوقت اللازم. بذلك تستطيعين البقاء لنهاية الصيف دون إشاعات أو أقاويل. أنا وأنت فقط نعرف حقيقة خطبتنا. كانت تكسو وجهه نظرات المكر والدهاء. ربما هكذا كان يبدو وجهه أيضًا يوم كان يدبر خططه مع «كروفورد» للمزاح. سألته:
– ماذا نفعل في نهاية الصيف؟ نعلن فسخ الخطبة!
– لم أصل في تفكيري إلى هذا البعد. سأتفق معك الآن، إذا سمحت لي بإعلان خطبتنا اليوم، أتركك تعلنين فسخها قبل رحيلك من هنا. أليس هذا الاتفاق متكافئًا؟ إنه يمنح لـ «مرتا» الوقت الذي تريده. إذن. هي خطبة صورية لإنهاء الإشاعات. فقط هو وهي يعرفان الحقيقة. الخطبة وأسبابها الموجبة تسمح لها بالبقاء في «دانكريغان»، ترعى «ديرميد» إلى أن تحقق «مرتا» رغباتها... قالت «ساندي»:
– أوافقك. ستكون الخطبة مفاجأة لـ «مرتا». لا أستطيع الانتظار لأرى تأثير

النبأ في وجهها حين نخبرها.
– وأيضًا ستكون مفاجأة لآخرين غيرها. إنني مسرور بموافقتك. نحن الآن حلفاء. قال «ليماند» ذلك ووجهه مشرق بالبشر.

- 7 -

وصلت «ساندي» و «ليماند» إلى المستشفى.
– أود أن أكلم «مرتا» على انفراد بشأن مستقبل «ديرميد». أحتاج إلى ربع ساعة فقط. خذي «ديرميد» إلى الحديقة العامة. سنخبرها بخطبتنا عند عودتك مع «ديرميد». وقبل أن تجادل، أسرع «ليماند» يقفز السلالم لوحده.
بدأ «ديرميد» يبكي ويصرخ:
– أريد عمي «ليماند». أريد أن أرى الماما. لكنه سرعان ما نسي بكاءه وعاد يضحك حين وضعته على الأرجوحة وبدأت تدفعه قليلاً وهي تلاعبه.
المطر قد غسل الأشجار والأزهار فبدت أكثر لمعانًا. الطقس جيد اليوم مما يساعد على مناسبة كهذه. إعلان الخِطبة. كانت «ساندي» تفكر كعادتها، لكنها أبعدت فرحتها جانبًا لأنها تذكرت أن الخطبة مزيفة، بل مزحة رتبها أحد التوءمين من آل «كالدويل». الهدف من تدبيرها أن تربك وتعطل الإشاعات المحلية حول علاقتها بـ «ليماند». مدّت يدها إلى جيبها. وجدت رسالتها إلى «ديريك سلون» ما تزال مكانها لقد نسيت أن تضعها بالبريد. ماذا سيعتقد «ديريك»؟ بمغامرتها الجديدة هذه، لن يفهم ولو شرحت له القصة مليون سنة. قصة خطبتها إلى «ليماند» الصورية. ولكن لماذا تشرح له التفاصيل؟ أفضل ألا تخبره بها أبدًا. عندما ستراه سيكون الصيف قد انتهى وانتهت معه خطبتها إلى فارس «دانكريغان».
وبعد الأرجوحة، انتقل «ديرميد» إلى الزلاقة. كان ينزلق عليها مع صغار آخرين من أعلى إلى أسفل وهو يصرخ فرحًا. وقد وجدت عناء كبيرًا لإقناعه بأن الوقت قد حان ليذهب ويرى والدته في المستشفى. كانت «مرتا» وحدها في الغرفة. وجهها الشاحب الجميل تبدو عليه آثار الدموع.
– أهلا. بدت «مرتا» خائرة القوى بعد أن ضمّت «ديرميد» إليها.

www.rewity.com

– أين «ليماند»؟ سألتها «ساندي» وهي تأمل ألا تكون دموعها التي ذرفتها، عائقًا يمنع «ليماند» من الحديث معها.

– ذهب يفتش عن «هيلين» حيث أنها ما زالت تعمل هنا. «ساندي»، «ليماند» يريد أن يبقى «ديرميد» معك في «دانكريغان» لحين شفائي وكذلك «ديرميد» يريدك معه. أنا لا أدرى كيف سيكون ذلك ممكنًا بعدما ذكرته «هيلين» عنك وعنه... لقد تفوهت بأشياء مخجلة. سألت «ساندي»:

– ماذا قالت؟

– تقول إنكما تعيشان معًا... كانت هنا في الصباح تلومني. تقول إنها غلطتي. كان عليّ ألا أدعوك للحضور. وتعلق تعليقات قذرة عنك. انزعجت كثيرًا... أخبرت «ليماند» بما قالته عنك ولو لم أخبره لانفجرت من الغيظ. ابيضّ وجهه وشعرت كأنه في طريقه للقيام بجريمة. خرج مسرعًا. قال إنه سيفتش عن «هيلين» ويضع لهذه القصة نهاية. سألتها «ساندي» دون أن تكترث لما قالته:

– هل تحدثتما في مستقبل «ديرميد»؟

– أوه، كلا، لكنني سأفهم الآن إذا رفضت البقاء مع «ديرميد» في «دانكريغان»، لكن من سيعتني به إن رحلت؟

– لن أذهب. لا ضرورة لذلك. اتفقنا أنا و «ليماند» على إعلان خطبتنا وهذا سيقطع دابر الإشاعات. بدا وجه «مرتا» مضحكا. عيناها تجمدتا من المفاجأة. فمها انفرج قليلاً وبرزت عيناها إلى الأمام. أسفت «ساندي»، لأن «ليماند» لم يكن في الغرفة ليشاهد «مرتا» على هذا الحال من التعجب والدهشة.

– أليس باردًا؟! لم يذكر لي ولا كلمة عن الخطبة ولا لمّح لي بها.

– أردنا أن نخبرك بالنبأ سوية. رغب في أن يكلمك على انفراد بشأن مستقبل «ديرميد» أولاً.

– إنه أحسن خبر سمعته منذ زمن بعيد. اختفت دموع «مرتا» وحل محلها بسمة عريضة:

– هل أخبرت والديك؟ أعتقد أن عمتي ستسر للخبر. دائمًا كانت تفاخر بتحصيلك العلمي ولكنها، يوم كنت بضيافتكم، أسرت إليّ بأمنيتها أن تراك متزوجة يومًا ما. هل حددتما موعد الزفاف؟

– لا، لا، قررنا فقط الخطبة الآن. شعرت «ساندي» كأنها وسط تيار يجذبها ولا تستطيع الرجوع. «مرتا» لا تفكر إلا في حفلة الزفاف؟ «مرتا» تعتقد أن الزواج أهم خطوة في حياة الإنسان.

– وهكذا. الخطبة تحل المشكلة. يمكنك البقاء على الرغم مما تقوله «هيلين» عنك. إنها تغار مني. والآن تغار منك لأننا نقاسم «ليماند» منزله... لا أعتقد أنكما انتقيتما الخواتم بعد؟

– لا ليس بعد. وقالت في نفسها: «لن نفعل. هل حسب «ليماند» حساب الخطوات التي تتبع عادة لإعلان الخطبة؟»

– أتمنى لكما السعادة. قالت «مرتا» ذلك وامتلأت مآقيها بدموع الفرح هذه المرّة. إنها لحظات عاطفية، و «مرتا» حساسة وعاطفية للغاية.

– أنت لست غاضبة لأنه خطبني أنا، وليس أنت؟

– كنت لفترة سابقة أعتقد أن «ليماند» هو الرجل المناسب ليصبح والد «ديرميد» ولكنني تحققت أن ذلك لاينفع. أنا وهو لا يجمعنا شيء. لا أحاديثنا متشابهة ولا يمكننا حتى أن نكون صديقين. من الضروري أن يكون الزوج صديقًا وحبيبًا في الوقت نفسه. تعلمت هذا الدرس من زواجي الأول، يوم كنت زوجة «كروفورد».

– ظننت أنك كنت سعيدة معه!

– كنت أحبه يوم كنت أعيش معه. الحياة بصحبته مثيرة وملذة. هي مغامرة طويلة. كان يرغبني مادام أنا جميلة ونشيطة ومستعدة لأن أجاريه. وكما لا يخفى عليك لا يمكنني أن أكون دائمًا على هذا الحال. لما كنت أحس المرض أو التعب كان لا يهتم بأمري. كان يذهب يفتش عمن تسليه، خارج المنزل، بدلاً من البقاء بجواري ليخفف عني ويسليني. لم يحبني بالطريقة التي كنت أرغب في أن يحبني... كنت آمل أن أجد يومًا شخصًا يحبني كما أريد.

– «بيل لندسي»؟

– نعم، كيف عرفت؟

– «ليماند» أخبرني.

– كيف عرف؟ قالت وهي تضحك:

– إنه يجيد الحساب. كان «ليماند» قد وصل إلى الغرفة.
– تهانيّ القلبية يا شقيق زوجي. لا يمكن أن تختار فتاة أفضل من «ساندي».
– لقد أخبرتها؟ نظر إلى «ساندي» والشرر يتطاير من عينيه.
– كان لابد لي. كانت تمر بحالة عصبية لأنك أخبرتها بأن «ديرميد» يبقى في «دانكريغان» فقط إذا رضيت أنا بالبقاء أيضًا معه. وكانت تعتقد أنني لن أبقى بعدما أشيع عني وعنك.
– أنا مسرور لأنك وجدت أن حلّ المشكلة كان ممتازًا. أريدك أن تعرفي أيضًا، يا «مرتا»، إنني قررت أن أتكفل بمصاريف تعليم «ديرميد» عنك. هذا أقل ما أستطيع تقديمه لابن أخي «كروفورد». أنا واثق بأن والدي، لو كان حيًّا، كان سيفعل الشيء نفسه. أهلا به يعيش معي في «دانكريغان» إلى أن تجدي لك منزلاً مستقرًا. وجه «مرتا» كان الآن جامدًا من الفرحة وليس من الدهشة.
– أوه، «ليماند»، كيف أشكرك؟ قال ببروده المعتاد:
– يمكنك أن تخبري «بيل» بهذا الترتيب في أقرب فرصة.
– كيف حزرت بعلاقتي مع «بيل»؟ حاولنا جهدنا أن نبقيها طي الكتمان وسرًا لنا.
– ليلة سهرت في الفندق معه ومع آخرين، لاحظت نظراتك إليه. بعد ذلك تحدثت مع «هيلين» وعرفت منها ما يريده «بيل» مني بشأن الصغير. بل أخبرها بأنه سيتزوج بك ليطمئن بالها. كانت «هيلين» تشك في أننا أنا وأنت نعيش قصة غرام. هي لا تثق بي كثيرًا ودائمًا لديها أسباب وجيهة لذلك.
– كم هي سخيفة! هل أخبرتها بخطبتك لـ «ساندي»؟
– نعم الآن، وقبل أن يحل الظلام سيكون الخبر قد انتشر. حان وقت الانصراف. في طريق العودة إلى المنزل وضعت «ساندي» رسالتها بالبريد. كانت تجهل عنوان «ديريك» في جزر «اليونان» لذلك أرسلتها إلى عنوانه في «إنجلترا». حين وصلا المنزل كان «جوني» في المطبخ يتناول الشاي.
– كم أنتما بارعان في الكتمان؟ قال «ليماند» ببرود:

– أعتقد أن الأنباء وصلت إلى «كريغان».
– «هيلين» جلبت الأخبار، كان «جوني» يسخر قائلاً:
– كانت تنتظره على الشاطئ لتخبره بالنبإ فور وصوله. كنت أساعده في المركب وقت السباق. سمعت كل شيء. شعرت كأنني أحمق صغير وأنا أعترف له أن لا علم لي بالأمر.
– أنا و «ساندي» لم نكن نعرف... حتى هذا الصباح. قال «ليماند» ذلك وهو يضحك:
– هذا كل ما عندك يا «جوني»؟
– لا، تهانينا القلبية. كم كان «رون» صائبًا وهو يمزح البارحة. لقد تنبأ لـ «ساندي» بذلك. كذلك والدتي سوف تقول إنها رأت في فنجانها رجلاً أسمر.
– هذا صحيح، قالت لي إنها ترى شابًا وسيمًا أسود الشعر في حياتي. ضحكت «ساندي» ثم تذكرت ما قالته «نان» عن «هيلين» وقد حذرتها من أنها ستسبب لها المشاكل... شعرت بقشعريرة تسري في بدنها. سألها «جوني»:
– وهل ما زلت راغبة في مشاركتنا رحلتنا البحرية غدًا؟
– أوه، لكن... وأشارت «ساندي» إلى «ليماند» تعني بها أن ذلك أصبح غير وارد. قال «جوني»:
– «رون» سيفهم ولن يقف عائقًا بين حبيبين، وأظن أنه سيسعده أن يرافقنا «ليماند». ثم نظر إلى «ليماند» وأكمل:
– تحتاج إلى إجازة من العمل، يومًا واحدًا، لماذا لا يكون ذلك احتفالاً بالمناسبة السعيدة؟ قال «ليماند»:
– ربما. ونظر إلى «ساندي» بحنان. أحست بأن قلبها قد قفز من مكانه من شدّة الفرح.
أبحروا في المركب الأزرق، قبل ظهر يوم الأحد. كان «ليماند» يساعد على فك الشراع وإحكام وضعه. النسيم عليل. تركوا المصب وخرجوا إلى عرض البحر. عملية الإبحار جعلت «ساندي» تنسى جميع مشاكلها. كان «ديرميد» يجلس في حضنها باستكانة، وهي تتمتع بالتهاني التي انصبت عليها من مرافقيها وتعليقاتهم الخفيفة الظل. كان معهم في النزهة البحرية «شيلا

www.rewity.com

غرانت، والساقية الشقراء واسمها «جين هاردويك» وهي ابنة صاحب الفندق والتي عادت لتمضية عطلة الصيف وهي جامعية أيضًا. وصلوا إلى خليج صغير، ربطوا المركب ونزلوا ليسبحوا. طريق العودة كان أقل حيوية ونشاطًا. كانوا يبحرون بعكس الريح مما اضطرهم إلى الاستعانة بالمحرك. حين وصلوا المرفأ ركبت هي و «ليماند» ومعهما «ديرميد» في زورق صغير وتولى «ليماند» مهمة التجديف. وقد أحست «ساندي» بأن هذا اليوم من أجمل أيام حياتها على الإطلاق. لقد شاركها «ليماند» فيه وكان هادئًا وعاملها بلطف ولياقة لم تعهدهما منه من قبل. كل من حولها قد لاحظ اهتمامه بها ولياقته في معاملتها. في المنزل عاد «ليماند» إلى سابق عهده، قبل إعلان الخطبة. لم تعد تراه أكثر من السابق. وتراه وقت الطعام ليس إلا. في يوم الاثنين حضرت السيدة «برودي» لتدبر أعمال المنزل. بدأت بالتهاني والتعليقات وأتبعتها بوابل من الأسئلة.

ومرت أيام الأسبوع متشابهة. بعد الظهر وقت قيلولة الصغير، كانت تدرس الصور من جديد لعلها تحدد موقع الحفريات. ذهبت مرتين لزيارة «مرتا» في المستشفى. كانت تذهب مع «جوني» على دراجته. كان «ليماند» مشغولاً جدًا، ولم تسنح له فرصة للذهاب معها. منذ الأحد الماضي لم تره إلا لمامًا. وتخاف أن يلاحظ «جوني» ذلك ويستغرب الوضع غير الطبيعي بين خطيبين. هذا الأسبوع كان راكدًا وكئيبًا إذا ما قورن بالأسبوع الذي سبقه. في يوم الجمعة أخذت بعض الثياب إلى «مرتا» في المستشفى لأنها تستعد للخروج يوم السبت. حين وصلت «ساندي» إلى غرفتها وجدتها في حالة عصبية كأنها تكبت أحاسيسها. أمطرتها «مرتا» بوابل من الأسئلة عن الحالة في «دانكريغان».

– كل شيء على ما يرام. أكدت لها «ساندي»:

– المكتبة أصبحت مرتبة ونظيفة. أنا مسرورة لما قمت به من عملية التنظيف. لو يستطيع «ليماند» أن يوفر لي بعض الدهان لكنت طليت الجدران وأعدتها قاعة استقبال من القرن الثامن عشر.

– المنزل يحتاج إلى أكثر من ضربة دهان. يحتاج إلى ترميم وتغيير للأدوات الصحية وأعمال نجارة... هل تشعرين الآن بأنك سعيدة، وهل زايلك الإحساس بالذنب لأنك فرضت نفسك على «ليماند» يوم حضرت؟

– أكيد (كانت تكذب) لكن لماذا تسألين؟

– كنت أسأل عمّا إذا كنت ستبقين فترة أطول في «دانكريغان». حضرت اليوم «هيلين» لزيارتي. سترحل عن «كيركتون» بعد أن سنحت لها الفرصة لتعمل شريكة للدكتور «باركر». تقول هناك فرصة أخرى لها في «غلاسكو». ستعمل في أبحاث عن السرطان. ستسافر مع والدتها، كانتا مضطرتين وأنت تعرفين السبب؟

– كلا، لا أعرف السبب. هل تعرفينه أنت؟

– السبب هو خطبتك إلى «ليماند». كانت «هيلين» تمني النفس بأن تتزوج أحد التوءمين وكانت على وشك الزواج بـ «كروفورد» ولكنه تشاجر مع والده وطرده من المنزل وتزوج بي. «هيلين» تظن أنها إذا عملت في «كيركتون» قرب عمل «ليماند» ربما تتحقق أمنيتها في يوم من الأيام.

مسكينة «هيلين»! لكن لماذا «ساندي» تعطف على حالها؟ صحيح أنها سببت لها المشاكل وتناولتها بالإشاعات، ولمحت إلى العلاقة بينها وبين «ليماند» بشكل قذر، لكن ها قد ردت الحراب إلى نحرها وعادت عليها بأسوإ النتائج، سترحل من جديد دون أن تحظى بأحد التوءمين. ستخبر «ليماند» بالأمر. ماذا ستكون ردّة الفعل لديه؟ هل نسي أن يعمل حسابها؟ هل يهتم بأمرها؟ وكيف لها أن تعرف؟ إنه نسيج وحده ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بتصرفاته. عادت إلى «دانكريغان» مع «جوني» على دراجته. أنزلها أمام المنزل وأكمل طريقه من جديد إلى «كريغان». الشمس وقت الغروب ترخي ظلالاً خفيفة فوق التلة خلف المنزل. حدقت «ساندي» ورأت بكل وضوح ظلاً مستديرًا. لابد من أنه يعكس خندقًا كان يلف الحصن القديم.

ركضت إلى مكتب «ليماند» تخبره بأنها ستصعد التلة خلف المنزل. طلبت منه أن ينتبه إلى صوت «ديرميد» حين يستفيق. لن تتأخر. كان في غرفة جانبية، أثاثها فخم قديم من طراز «وندسور». لم ينظر إليها حين سألته بل اكتفى بأن همهم. أخذت همهمته على أنها موافقة، كان «ليماند» مشغولاً جدًا في تحضير الميزانية وبقية أعمال المزرعة كعادته في نهاية كل شهر.

بدأت الشمس تشحب وتستعد للمغيب. صعدت التلة وتعرفت الحفرة. كانت مليئة بالعليق. خلف الحفرة ترتفع الأرض بانحدار بسيط. التلة كلها تشكل

الحصن. مشت حول التلة مع الحفرة. وجدت نفسها كما انتظرت، في الضفة الثانية من التلة، تشرف على مصب النهر. وصلت إلى حاجز من الأسلاك الشائكة والتي تشير إلى حدود أملاك «دانكريغان». الجهة الثانية قد مهدت وأعدّت للبناء، اختفت الحفرة كليًا هناك. نزلت التلة فوجدت حفريات شبكة تصريف المياه والمجارير. قاعدة أساسية في عمليات التنقيب تقوم على دراسة حفريات المجارير قبل البدء في البناء. هنا يمكن للخبير في التنقيب أن يتحقق إذا ما ظهر، أي شيء له قيمة أثرية إلى الوجود. هذه الأراضي قد اشتراها البنّاء «كارسن». الحفريات موجودة. عليها فقط التحقق لعلها تجد بقايا خزف أو آثار أخرى من هذا القبيل، لتجزم أن حصنًا قديمًا كان هناك. ستعود غدًا للمزيد من التفحص.

بدأت تمشي بمحاذاة الحاجز. فجأة انتهى الحاجز ووجدت نفسها في الطريق التي مشتها مع «ليماند» يوم عادت برفقته من «كريغان». تحتها حصن «دانكريغان» كأنه شبح وسط الظلام الذي بدأ يحل بالمنطقة. تنبهت أن أحدًا يتحرك باتجاهها في الممر. إنه «ليماند»...

– جئت أبحث عنك. لقد اتصلت والدتك وأخبرتها بأنك ستتصلين بها حين عودتك. كان يقف أمامها وجهًا لوجه.

– هل حدث شيء عندنا في البيت؟ هل أخبرتك والدتي بأي شيء؟

– لا، تبدين قلقة. هل تنتظرين حصول أي شيء في منزلك؟

– ربما وصلتها رسالة من «مرتا» تخبرها بالخطبة. كان عليّ أن أخبرها بنفسي قبلها... لكن، أظن أن تعقيدات لم نلحظها من قبل تنتظرنا.

– لماذا تقولين تعقيدات بالجملة؟ اذكريها!

– «هيلين» سترحل. سوف لا تبقى لتعمل في «كيركتون».

– وماذا يهم؟ إنها حرة التصرف وتختار ما يروقها. ظهر لـ «ساندي» أنه لا يهتم بها.

– إنها سترحل لأنها جرحت مرّة ثانية من أحد أبناء «كالدويل». خطبتك لخبطت كيانها. لم يجبها فورًا. حين أجابها كان يبدو مسرورًا وتمنت لو ترى وجهه. كانا يمشيان جنبًا إلى جنب والعتمة تغطي المكان.

– هل أنت حزينة من أجلها؟ لا تهتمي بها، هل يزعجك أن تخبري والديك

بالخطبة؟

– لا، إلا إذا كان ذلك لا يضايقك؟

– لن أتضايق. أخبريهم بالأمر. ثم أكمل:

– خطبتنا لها حسنات وفوائد عديدة. أصبح هادئًا زيادة عن اللزوم. خافت. ربما سينقض عليها ليستفيد من فوائد الخطبة. ركضت بسرعة أمامه لكن يده أمسكت بها. وأدارها بسهولة لتواجهه وهو ما زال ممسكًا بها ويداه على خصرها، مستعدًا لأن يطبق عليها إن حاولت أن تتحرك.

– لا تركضي بسرعة. على مهلك قليلاً. القمر ليس بدرًا الليلة لكن هناك نجمات تكفي. وضعت يدها على صدره لتبعده وهي تدافع عن نفسها. أحست بسرعة نبضات قلبه تحت يدها. كان ما يزال بثياب العمل التي يلبسها في الحقول. قالت ببرود تصنعته:

– إعلان خطبتنا لا يعطيك الحق في مغازلتي.

– أعتقد أنها كذلك. لقد قيل لي إن العناق والغزل من متممات الخطبة بل أهم ما فيها. في نيتي أن أتمسك بحقوقي وامتيازاتي وأنتفع بها كاملة.

– لا تنتظر مني أن أحب ذلك. حين عانقها خافت أن يشعر بحماسها له، أو أنها رضخت إلى رغباته بسهولة. استجمعت قواها وأفلتت منه وركضت كأن وحشًا بشريًا يلاحقها. كان شعورها الحقيقي سعادة كبيرة تلت العناق والركض. تمنت لو يلحق بها ويجعلها تدفع الثمن مزيدًا من العناق حتى يكتفي وتكتفي. وصلت إلى المطبخ ومنه إلى القاعة الأساسية. كان قد لحق بها. أمسك بها قرب باب القاعة وجعل الحائط خلفها. نظراته صاروخية. عانقها بقوة ورمى بكل ثقله على صدرها. لم تستطع الحراك أو الدفاع لأن المد المثير الذي ارتفع في داخلها، غمرها. قال بحنان وقد انقطع نفسه:

– أنت تحبين العناق. وقبل أن ينتهي الليل سأجعلك تعترفين بأنك تحبينه. أبعدها قليلاً عن الحائط وأحاطها بذراعيه ليضمها إليه أكثر. هذه المرّة كان عناقه لطيفًا. كان يحرك عواطفها حسب رغبته، يأخذ منها مقابل ما يعطيها. رفعت يدها لتلمس وجهه وتلعب بشعره الأسود. لا فرق عندها بعد الآن، ماذا سيحصل، مرّة ثانية؟ شعرت بأنها ترغب في كل ما يرغب فيه.

لأول مرة منذ حضرت «ساندي» إلى «دانكريغان» أطالت النوم صباحًا. استفاقت على يدٍ صغيرة تهزها. فتحت عينيها لتجد «ديرميد» قربها مصبوغ الوجه بحمرة الشفاه كأنه مهرج.

– «ساندي»، قومي، إنني جائع وأريد الفطور.

– ماذا فعلت بوجهك؟

– استعملت أدوات الزينة الخاصة بالماما. هي تضع الحمرة على فمها. هل شكلي جميل مثلها؟ أعطاها إصبع الحمرة وقد تهشم وأصبح لا ينفع لشيء.

– أيها العفريت الصغير! احتارت «ساندي»: هل تضحك أم تصرخ في وجهه وتؤنبه؟

– عليّ أن أنظفك قبل أن يراك عمك «ليماند» وإلا سيكون لك معه شأن آخر.

مشى «ديرميد» معها إلى الحمّام دون معارضة خوفًا من توبيخ عمه له. أطلت على غرفة «مرتا» فوجدت جميع أدوات الزينة والملابس مبعثرة هنا وهناك. نظرت إليه فإذا هو يستعطفها وهو يرتجف:

– لا تقولي لعمي «ليماند».

– طيب. لكنك شيطان يا «ديرميد» مثل أبيك وعمك حين كانا في عمرك... كان المطبخ خاليًا، لا «جوني» ولا «ليماند» بالداخل والسيدة «برودي» لا تحضر يوم السبت. الصحون الوسخة... في المغسلة. وضعت إبريق الشاي، حضر «جوني». جلب فنجان شاي وصب لنفسه وبدأ يشرب وقال:

– تأخرت في النوم. متأسف لأنني قطعت عليكما عناقكما، أنت و «ليماند»، الليلة الماضية. كانت واثقة بأن لن يترك هذه الفرصة تمر دون أن يعلق عليها.

– لا تهتم. كنا فقط نقول مساء الخير.

– أوه، لا تقلقي يا «ساندي»، هل تظنين أنني لا أفرق بين عناق مساء الخير والعناق الحار...؟ لقد نلت اللوم والتقريع العنيف من «ليماند» لأنني عدت باكرًا من القرية. وهذا الصباح، لم يكن ودودًا معي.

بالتأكيد لأن رجوع «جوني» باكرًا الليلة الماضية ضيع على «ليماند» فرصة. كان يرغب في مغازلة «ساندي» لحين تعترف له بأنها تحب العناق مثله. حضور «جوني» جعل «ليماند» يفلت «ساندي» التي ركضت بدورها إلى

غرفتها في الطابق العلوي. كانت «ساندي» تراقب «جوني» وهو يرمقها بنظرة العارف ببواطن الأمور بدأت تتلهى وتخبره بما قام به «ديرميد» من شيطنة. فيما هما يتكلمان رن جرس التليفون. طلبت من «جوني» أن ينتبه للصغير كي تتكلم في التليفون:

– «ساندي»، أنا أمك، لماذا لم تتصلي بي مساء؟

– متأسفة يا ماما. تأخرت في تسلم رسالتك الهاتفية لي واعتقدت أنك ذهبت إلى النوم. هل هناك أي مشكلة؟ أنت تتكلمين في التليفون من مسافة بعيدة وفي النهار!

– لا، لكن أخباري لك ضرورية. زارنا صديقك «ديريك سلون»...

– لكنه موجود الآن في جزر «اليونان»!

– لا، لقد عاد. انتهت المهمة قبل موعدها. وصل هذا الأسبوع إلى «إنجلترا». وجد رسالتك في انتظاره. كان متحمسًا جدًّا لما اكتشفت. سيمر عليك قبل أن يزور صديقه الذي يعمل في متحف «غلاسكو»، قسم التنقيب. كان عليّ أن أعلمك. سيصل بعد ظهر اليوم، سيحضر بالسيارة، هل يستطيع أن يتصل بك؟

– بالطبع، أمي هل تسلّمت رسالة من «مرتا» مؤخرًا؟

– لا، لا منك ولا منها، لماذا، ماذا يحصل عندكم؟

– كنت أفكر في أن أكتب لك أو اتصل تليفونيًا لأخبرك بأنني أعلنت خطبتي.

– صحيح يا حبيبتي، ما أحلى أخبارك! هل خطيبك شخص نعرفه؟

– لا، ولكنك سمعت به. إنه «ليماند كالدويل». سلف «مرتا»... في البداية كنت لا أحبه!

– هذا يحصل دائمًا. أظنك حكيمة لأنك ترغبين في فترة خطبة. لا تتعجلي الزواج مثل «مرتا». الخطبة تعطيك فرصًا أفضل للتعارف وكذلك للتراجع قبل الارتباط الجدي في حال وجدتما أن الزواج لن ينفعكما. عليّ أن أتركك الآن. والدك خلفي يذكرني بتكاليف هذه المخابرة. يرسل لك حبه. سأكتب لأقول لـ «ليماند» إننا نحب أن نراكما في زياراتنا متى تسنح لكما الظروف؟ أغلقت «ساندي» سماعة التليفون. شعرت براحة بعد أن أخبرت والدتها بالخطبة.

كان «جوني» ما يزال يلعب مع «ديرميد» ويضاحكه.
– أين «ليماند»؟
– يطعم العجول.
– انتظر مع «ديرميد» دقائق قليلة أرجوك. عليّ أن أكلم «ليماند» بشيء مهم. ركضت إلى الزريبة. الهواء خفيف وكذلك الأمطار. كان «ليماند» يحمل سطلين فارغين. رآها راكضة نحوه. توقف مكانه ينتظرها. سألها:
– ما الخبر؟ كان جافًا لا وجود لابتسامة على وجهه. التعب ظاهر على محياه كأنه لم ينم أبدًا الليلة الماضية. وأضاف:
– مزيد من التعقيدات. قالت له:
– اتصلت والدتي. لدينا زائر بعد الظهر.
– هل ستحضر والدتك إلى هنا؟
– لا، إنه صديق لي. أجابها ساخرًا:
– هل هو صديقك الذي تشاركينه في ميوله، بقايا الخزف، الآثار، التوابيت؟
–إنه هو. أجابته وهي تتعجب كيف حزر. كان «ليماند» يضحك بصوت مرتفع. قالت وهي تكاد تنفجر من الغيظ:
– لماذا تضحك؟ أنا مرتبكة...
– ما الذي يربكك؟ هل تجدين خطبتنا مربكة الآن؟
– نعم، لا أظن «ديريك» سيفهم أسباب الخطبة المزيفة. لا أعرف كيف سأشرحها له.
– أرجو ألا تكوني راغبة في قول الحقيقة له؟
– لا أستطيع أن أخبره بالحقيقة إلا إذا وافقت أنت. ربما سيشعر بجرح مثل جرح «هيلين».
– هل أخبرت والدتك بالخطبة؟
– نعم.
– هل كانت متفهمة للوضع؟
– نعم، قالت إعلان الخطبة أولاً عمل حكيم يساعدنا على أن نتعرف أكثر إلى بعض، ثم نستطيع فسخها حين نقرر أننا لا نصلح للزواج.

– إذن، قولي لـ «ديريك» الشيء نفسه. وإذا لم يفهم يكون ذلك من سوء طالعه. اذهبي الآن إلى المنزل من أجل رعاية «ديرميد».
– ولكنني...
– قلت لك ما يتوجب عليك عمله. ألم تحضري إلى هنا لتأخذي نصيحتي؟ هل كنت تعتقدين أنني سأفسخ الخطبة بسهولة فترة زيارة «ديريك» هنا، أنا لا أستطيع ذلك. آسف. إذا فسخت الخطبة بهذه السرعة تزيد الإشاعات أكثر وبالتالي لن تستطيعي البقاء. آسف لأن الخطبة في نظرك ورطة مربكة، لكننا وافقنا عليها معًا، من أجل سمعتك وفضائلك، كي لا تزيد من تلطيخ سمعتي وتزيدها سوادًا، وكي نعطي «مرتا» الوقت اللازم لتحصل على رغباتها... عن إذنك. إنني مشغول. لديّ حيوانات أريد إطعامها. تكلم بخشونة وكبرياء، مما جعل «ساندي» تظهر أمامه كأنها عبدة له، عليها الإخلاص والولاء. نظرته إليها كشيء يثير قرفه واشمئزازه. أجابته وهي تضحك:
– نعم، نعم يا سيدي. قدمت له تحية ملكية، ركعت له ساخرة لم تشعر «ساندي» بأن عواطفها قد جرحت، لكنها أحست بالدموع تجول في عينيها. فتشت عن السبب، ولكنها استبعدته على الفور. لا يمكنها أن تعترف بأن خشونته قد جرحت إحساسها، لأنها في قرارة نفسها قد وقعت في حبه. صباحًا رن جرس التليفون وكانت «مرتا» على الخط كان صوتها ضاحكًا.
– احرزي يا «ساندي».
– ماذا؟
– تزوجنا الآن، برخصة خاصة، أنا و «بيل».
– لماذا لم تخبريني البارحة بعزمك؟ كنت ولا شك تعرفين.
– أردناه زواجًا سريًا. أرجوك أخبري «ليماند» بالنيابة عنّي!
– طبعًا، سأقول له. ألن تحضري إلى هنا بعد الظهر كما اتفقنا؟
– لا. سنذهب شهر عسل صغير إلى بلد يعرفه «بيل». عندما نعود سنأخذ «ديرميد» ليعيش معنا في «بروكفيلد».
– لم أسمع أن أحدًا تزوج وهو بالجص وعلى عكازين؟ قالت «مارتا» وهي تضحك:
– ولا أنا كذلك. قررنا أن نبقى معًا، بما أنه سيعالجني على أية حال.

وفي وقت الغداء، أعلنت «ساندي» الأنباء إلى «ليماند» و «جوني». لم يعلق «ليماند». سرَّ «جوني» وقال:

– خطبة هنا وزواج هناك. عليّ أن أرجع فورًا إلى الجامعة قبل أن تصيبني العدوى. كما تعرف يا «ليماند»، لقد تغير هذا المنزل منذ أن وضعت «مرتا» قدمها فيه. أجاب «ليماند»:

– هذا صحيح، ولكن لا تهتم بالأمر. كل شيء سيعود إلى سابق عهده بعد أسبوع أو أكثر. كان «ليماند» يرمي من كلامه إلى أنه لا لزوم لها في «دانكريغان» بعد أن تأخذ «مرتا» ابنها.

فترة قيلولة «ديرميد» أمضتها «ساندي» في المكتبة تفتش من جديد عن البقايا الخزفية التي عثر عليها «كافن». عليها ألا تتعجب من موقف «ليماند» الجديد. لا شيء غريب عن طبيعته. دائمًا بارد ولا يكترث. غريب الأطوار أحيانًا. ها هو يتصرف الآن كأنه ليس صديقًا لها أو حتى حليفًا.

لكن الليلة الماضية، لو لم يحضر «جوني»... ثم أبعدت عنها هذه الفكرة بسرعة، ما الذي كان سيحصل؟ حضور «جوني» كان لصالحها. ثم يوم حضرت «هيلين» وقطعت عليهما عناقهما... لو لم تحضر... ولو لم يحضر «جوني»... ربما كان «ليماند» أضافها إلى لائحة الأزهار التي قطفها ثم رماها. إنها تعرف أنها لن تقاوم سحره.

امتلأت عيناها بالدموع من جديد. أمسكت بكتاب لتنظف الغبار عنه. كان كبيرًا وسميكًا. فتحت الغطاء وأصابتها رعشة دهشة على الفور. إنها كانت علبة متخفية بشكل كتاب. بداخل العلبة بقايا ملفوفة بعناية فائقة في ورق ناعم. نسيت دموعها. فتحت العلبة بعناية. ظهر لها دبوس الزينة المعدني (ربما كان مصنوعًا من الذهب). الدبوس يشبك القماش حول الرقبة أو على الكتف. ملصق بالدبوس بطاقة كتب عليها «كافن» بخطه: وجد في حفرة في التلة مما يؤكد نظرية «تشايلد» في بداية هذا القرن، إن «دانكريغان» هي موقع حصن قديم في العصور المظلمة. ثم وجدت العجينة الفخارية وعليها بطاقة تقول: وجدت في حفرة في التلة، ربما بقايا عجينة فخارية للصب في قوالب معدنية.

أعادت «ساندي» البقايا بعناية. إن «ديريك» يستطيع مساعدتها لتحديد

قيمتها. ستأخذ رأيه عند وصوله. وقع نظر «ساندي» على صورة «كافن» و «فيليدا» فوق المكتب. أمسكت بها لتعيد النظر. ما أعجب هذا الرجل! إنه مزيج من الكبرياء والعجرفة لكن بداخله إحساس عميق. هو عالم وباحث وقد ربح الميداليات لبطولاته وشجاعته في المعارك ليس ليقتل بل لينقذ أرواح الرجال الذين يعملون تحت إمرته. نظرت إلى «فيليدا» وجهها البشوش فيه مكر محبب. قيل إن المرأة مستهترة ومتيقظة. قيل أيضًا إنها متحمسة، ولا تفكر في نفسها. هي الوحيدة التي تبرعت بمرافقة «ستيوارت لندسي» في رحلة تجريبية في مركبه الجديد وقد غرقت معه. مما لا شك فيه أن «كافن» قد أحبها. لكن هل كانت هي أيضًا تحبه؟ هل أحبت «ستيوارت لندسي»؟ لا أحد يعرف. فقط «فيليدا» وحدها تعرف الحقيقة وقد ماتت «فيليدا» وماتت الحقيقة معها.

انتقل تفكيرها إلى «بيل» و «هيلين»، ولدي «ستيوارت»، ثم إلى «ليماند» الولد الحي الباقي لـ «كافن». قارنت بينهما. الشعر الأسود وعينا «كافن» التي تشبه الصاروخ وتمتمت في نفسها قائلة: «لو كنت أنا مكان «فيليدا» لكنت بالطبع أعرف من أحب».

– 8 -

لم يصل «ديريك» بعد الظهر كما انتظرت «ساندي». حضر في اليوم التالي صباحًا بينما كانت «ساندي» تغادر المنزل مع «ديرميد» إلى الشاطئ لتستفيد من تحسن الطقس. نزل «ديريك» من السيارة السوداء الصغيرة التي كان يقودها بنفسه. رأى «ساندي» مع «ديرميد». ضحك لها وقال:

– مرحبًا، أخبريني ما قصة الحصن القديم الذي يعود تاريخه إلى العصور المظلمة؟

– تسلّمت رسالتي إذن!

– وصلتني في اليوم نفسه الذي وصلت فيه إلى البيت عائدًا من الجزر اليونانية؟

كان «ديريك» قد اكتسب سمرة محببة، من البحر الأبيض المتوسط، ظهرت

بوضوح على وجهه الطويل النحيل وأعطت لشعره الأشقر لونًا برنزيًا. لباسه، كالعادة، قليل الترتيب. عصبي المزاج، عيناه زرقاوان، سريع الملاحظة يلبس على عينيه نظارة طبية. رؤية «ديريك» لم تجعل نبضها يسرع ولا سمعت طنينا في أذنيها. اهتمامه بالحصن كان يفوق اهتمامه برؤيتها. بدأ عقلها يهضم هذه الحقيقة وهي تجيب عن أسئلته حول الحصن. أخذته إلى المكتبة في المنزل حيث عرضت عليه البقايا الأثرية التي كان قد وجدها «كافن» في التلة. قالت «ساندي»:

– الصور الفوتوغرافية تجزم بوجود الخندق. ولكنه ملي، بالعليق.

– أريد رؤية الصور. إنني في طريقي لرؤية «نويل ماك»، «كويش» أنت تعرفين أن الشاب عمل في حفريات التنقيب في «روكستر» وهو يعمل الآن في متحف «غلاسكو». سيسر جدًا بما اكتشفت.

– عليّ أن أستأذن «ليماند» في السماح لك بأخذ الآثار معك.

– من هو؟

– إنه المالك الحالي لهذه الأراضي وابن الرجل الذي عثر على الآثار. إنه خطيبي. انتهت من مشكلة إخبار «ديريك» بأنباء خطبتها. انتظرت ردّة الفعل عنه. لم يبدِ أي انزعاج بل أكمل فحص الدبوس الذي بين يديه. ثم قال ببرود:

– لماذا الخطبة الآن؟ اعتقدت دائمًا أن لا صبر لديك لمؤسسة الزواج وترغبين في إكمال علومك للنهاية.

– الخطبة خطوة مرحلية تتيح لنا أن نتعرف إلى بعض ونكتشف إذا كنا حقيقة نرغب في الزواج. يمكننا أن نتراجع متى نرغب ونعلن فسخها.

– أعتقد ذلك. كنت تعرفين أن هناك دراسات تقول بوجود حصن قديم يعود إلى القرن السادس في هذه المنطقة. كان «ديريك» يقلب القطعة الفخارية ويتفحصها. اهتمامه بها يفوق اهتمامه بأنباء خطبتها.

– إنها عجينة خزفية لصنع أدوات الزينة. يوجد عليها نقوش في داخلها. إنها تذكرني ببعض البقايا التي وجدناها في مستوطنات الـ «أنجلو ساكسون». هذه القطعة عليها نقوش.

إن خطبتها لا تعني له شيئًا. هي بالنسبة إليه صديقة تشاركه ميوله العلمية

وبحوثه. لديهما مصالح مشتركة لبحثها مثل: بقايا الخزف والدبابيس الأثرية. إنه لا يراها كامرأة وسوف لن يراها كذلك أبدًا.

– سأتصل بـ «نويل». سأطلب منه الحضور إلى هنا. هل هناك نزل نبقى فيه، نوم مع فطور؟

– طبعًا، في القرية. «جوني» يعرف أين. عليّ أن أحذرك أن «ليماند» لن يسمح لأحد بالحفر في القسم الآخر من التلة التي تقع ضمن أملاكه لأنه زرعها أشجارًا صغيرة.

– هذا سخيف!

– الليلة الماضية تمشيت حول التلة في الموقع الذي أعتقد أنه الخندق. انتهيت في موقع للبناء. وجدت حفريات المجارير التي قام بها عمال البناء.

– مجارير. هذا عظيم. هل تعرفين البنّاء؟

– أعرف ابنه، هو الذي جلب لي الصور.

– حسنًا، متى نستطيع زيارة الموقع؟

– الآن، إذا كان باستطاعتي أن أصطحب معي الصغير.

«كريغان» هادئة مع مطلع الصباح والشمس مشرقة. بعض المراكب كانت تتأرجح في المصب ولحسن الحظ «جوني» و «رون» ما زالا على الشاطئ ولم يبحرا بعد. رحبا بـ «ديريك» ووجدا له مأوى في نزل صغير ثم ذهب الجميع لرؤية الحفريات المعدة للمجارير في موقع البناء. بقوا هناك للظهر. كم يمر الوقت سريعًا؟! عادت «ساندي» مع «رون» في سيارته ومعها «ديرميد» إلى «دانكريغان». التقت سيارة «هيلين» تغادر المنزل قبل وصولها. كانت «هيلين» في طريقها في اتجاه «كيركتون». لم يكن «ليماند» في المنزل. أكلت هي و «ديرميد» ثم أخذته إلى غرفته ليرتاح. نزلت إلى المكتبة لتكمل عملية تنظيف الكتب! بعد الظهر أخذت «ديرميد» معها حيث ساعدها على عملية التفتيش وسط الحفريات المعدّة للمجارير. لم يعثرا على شيء. اتصل «ديريك» تليفونيًا بـ «نويل». أخبره بأنه سيصل إلى «دانكريغان» في اليوم التالي. مشت «ساندي» مع «ديريك» و «ديرميد» إلى المنزل. أراد «ديريك» أن يسأل «ليماند» السماح له ليطلع «نويل» على الآثار التي في المكتبة. كان «ليماند» ما يزال في الحقل يحاول إصلاح محرك الجرار. تعرف إلى «ديريك» وصحبه إلى المكتبة.

سألت «ساندي»:

– هل تسمح لـ «نويل» بأن يأخذ الآثار معه إلى متحف «غلاسكو» لتقييمها وتوثيقها؟ أجاب «ليماند» بعدم اكتراث:

– لا مانع عندي. المهم أن تبتعدوا في الحفر حيث المزروعات.

– إذا استطاعنا أن نبرهن على وجود الحصن سيعود الفضل في ذلك إلى والدك. أخبرتني «ساندي» بالمخطوطات التاريخية التي ألفها. أرجو أن تنشر يومًا ما.

– ربما أفعل. أرجو أن تذكر فضل «ساندي» لأنها كانت تنقب هنا. قال «ديريك» جادًا:

– بالطبع، ستساعدنا على الحفريات الأسبوع المقبل. قَبِلَ «كارسن» البنّاء أن يؤخر عماله في البناء لحين تنتهي من عملية التنقيب.

– حسنًا، قال «ليماند» ذلك وترك الغرفة دون استئذان وكأن شيئًا لا يعنيه، حتى إنه لم ينظر إلى «ساندي». قال «ديريك»:

– أنا لا أفهم!

– ماذا تعني؟

– هو وأنت. كادت «ساندي» أن تخبره بأن خطبتهما صورية فقط لتنهي الإشاعات حول علاقتهما. لكنها متأكدة أيضًا أنه لن يفهم الأسباب مهما شرحتها له. توقفت. ثم أكمل حديثه كمن لا يعنيه الأمر أو كمن ارتبك في بحث موضوع خاص، «كالحب بين شخصين»:

– ربما جميع آرائي بصدد مؤسسة الزواج خاطئة. كنت أتخيل الخطيبين في حب ظاهر وحنان ملحوظ.

– وكيف تعرف أننا لسنا كذلك عندما ننفرد ببعض؟ عواطفنا هي ملكنا وحدنا وليست عرضًا للتسلية، يتفرج علينا الآخرون.

– أعتقد أنك على صواب. سأعود إلى القرية. لقد دعاني «رون» إلى منزل والديه للطعام. انزعجت «ساندي» من حديثها مع «ديريك». بقيت كذلك فترة بعض الظهر بقي «ليماند» معزولاً عن الجميع وبذلك أعطى «ديريك» مجالاً لمثل هذا التفكير. تراجع «ليماند» في علاقته معها. تذكرت أول أسبوعين لها في «دانكريغان». كانت لا تراه إلا وقت الطعام. كأن لا أسرار بينهما مثل

سر الخطبة.

كانت «ساندي» تأخذ «ديرميد» معها كل يوم وتمضي معظم أوقاتها فوق التلة. وصل «نويل» وقرر أن يبقى في «دانكريغان» لنهاية الأسبوع. وجدوا في حفريات المجارير بعض الآثار: عظمة مصقولة تشبه مسّاكة مشط وعليها زخرفة ونقوش، وبقايا خزفية أخرى... عثر «ديريك» على رف من الحجارة المرصوصة. يحتاجون إلى الحفر والتنقيب في نطاق واسع ليتحققوا مما عثر عليه «ديريك». قال «نويل»:

– نحتاج من خمسة إلى ستة أسابيع في العمل هنا. سأعود الآن إلى المتحف. «كارسن» يستطيع الانتظار ليكمل البناء متى نفرغ من التنقيب. من المؤسف أنك لن تبقى حتى النهاية يا «ديريك»؟

– عليّ أن أعود إلى الجامعة في «دولشستر» من أجل أبحاثي. أنا لا أعرف ماذا ستفعل «ساندي»؟! حتى ولا هي تعرف ماذا ستفعل... عادت «مرتا» من شهر العسل ومرت بالمنزل في طريقها إلى «بروكفيلد» لتأخذ «ديرميد» معها. كان «ليماند» خارج المنزل في قرية «كيرك كادبرايت» في اجتماع مع أعضاء المجلس. وصلت «مرتا» وكانت ما تزال تستعمل العكازين. كانت جميلة مشعة، ووجهها مشرق بالسعادة. ومعها «بيل» بطبعه المرح المعتاد. قالت لها «مرتا»:

– يمكنك أن تأتي لتعيشي معنا في «بروكفيلد». لحين تحديد موعد الزفاف. هل ستذهبين إلى «هامشير» قبل الزواج؟

– نعم. أرغب في العودة إلى «هامشير». يمكنني أن أذهب برفقة «ديريك». سيرحل اليوم بعد الظهر. دهشت «مرتا» من قرارها ولكنها شرحت لها الأسباب بسرعة قائلة:

– سأذهب من أجل الحصن. قالت «مرتا»:

– إنه مثير. كانت تظهر على قسمات وجهها أمارات الضجر. أكملت:

– أعلميني قرارك. أخبري «ليماند» بأننا عدنا ونود رؤيته ما يزال علينا بحث مستقبل «ديرميد» العلمي معه بالتفصيل. غادرت «مرتا» و «بيل» «دانكريغان» وبصحبتهما «ديرميد». شعرت «ساندي» بأن لا شيء يشغلها، هي حرة التصرف وتستطيع الرحيل إذا رغبت. ولكنها ليست حرة تمامًا. عليها انتظار

عودة «ليماند» لتخبره برجوع «مرتا». الآن أسباب بقائها في «دانكريغان» زالت وبزاولها تستطيع هي و «ليماند» فسخ الخطبة

إنها لا ترغب في الرحيل. دراستها في «دولشستر» لم تعد تهمها. صعدت إلى غرفتها وبدأت ترتب وتجهز حوائجها لتكون جاهزة حين يحضر «ديريك»، كما وعد. قال إنه سيمر عليها قبل عودته، في طريقه إلى «كيركتون» في الجنوب. كانت تجمع حوائجها بشكل مضطرب وتجد صعوبة في أن تبقي عقلها يعمل. تحاول أن ترمي خلفها كل الأفكار المزعجة ومنها أسباب ابتعاد «ليماند» عنها مؤخرًا. كان هذا يجرحها بل يؤلمها كثيرًا.

الأفكار تتلاحق في ذهنها. تذكرت آراءها العفوية عن الحب والزواج وعن إمكانها أن تعرف مع نهاية الصيف إذا كان هناك شخص ترغب في الزواج به والعيش معه. وها قد انتهى الصيف وعرفت أنها تحب صديقًا وترغب في العيش معه لآخر العمر. لا فرق عندها في الطريقة التي يختارها لتبقى معه، قريبة منه، تتجادل وإياه، يوبخها بسخرية، تمشي معه في ضوء القمر، تضحك معه، تحبه.

انتهت من حزم أمتعتها، ذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الحصن. الطقس غائم والهواء شديد يصفر ويرسل الغيمات راكضة في السماء. المياه في المصب تدور بفعل الرياح وتجعل رغوة بيضاء تطفو فوقها. تذكرت «ساندي» بيت شعر لـ «تنسون» حيث قال: «المياه تمطر على جدران الحصن». وفجأة دخلت عالم الماضي بخيالها. رأت الحصن كما يجب أن يكون في العصور الوسطى: سلطة وقوة، في المدخل، الفرسان تلبس دروعها التي تلمع تحت أشعة الشمس. الأعلام المثلثة الملونة ترفرف بفعل النسيم. الكل في هرج ومرج سوى فارس واحد. كان مبتعدًا عن الآخرين مع حصانه الأسود. أنيق في ثوبه الرمادي وبنطلونه الأسود. يضع في خوذته الرياش المميزة. كان ينظر إلى سيدة جميلة تطل من نافذة في الحصن.

رف جفنها ورجعت إلى الواقع. تذكرت حلم أول ليلة لها في «دانكريغان». الحلم الذي تكرر أكثر من مرة... وكان البطل هو نفسه فارس «دانكريغان»، «ليماند». تذكرت أنها لم تزر قبو الحصن ولا السجن. عليها أن تزورهما الآن وإلا لن تراهما أبدًا. نزلت سريعًا إلى المطبخ. وجدت «جوني» هناك. سألته:

– أين أجد مفتاح الحصن؟

– معلق في مسمار على المدخل المسقوف في الرواق لماذا؟ شرحت «ساندي» له بسرعة. قالت له إن «مرتا» قد حضرت وأخذت «ديرميد» معها إلى «بروكفيلد». وأسرعت راكضة، بينما كان «جوني» يوصيها أن تتنبه لنفسها وهي في داخل الحصن.

كانت تسير بعكس اتجاه الريح وهي في طريقها إلى الحصن. بدأت أوراق الشجر تصفر مؤذنة بموسم الخريف. أوراق الكرز قد جمعتها الرياح قرب الحصن فتحت باب الحصن ودخلت. كانت السيارات الثلاث ما تزال مكانها في الساحة. في زاوية الغرفة وجدت الباب الأرضي إلى القبو قد فتح كأن أحدًا قد نزل إلى أسفل، منذ قليل.

نزلت السلالم الخشبية بتأنٍ. سرت، لأن الكهرباء قد أُطفئت قبل وصولها. الشخص الذي دخل قبلها ترك لها النور الكهربائي لينير عتمة القبو. الغرفة تحت الأرض باردة ورطبة ولكنها نظيفة وتشبه المستودع. مساطب خشبية متينة رصت فوقها علب زيت المكَنَات والمحركات. إنها مستودع ولا شك.

يقبع السجن في زاوية القبو. غرفة صغيرة مبنية من حجارة ولها باب من القضبان الحديدية. مدت رأسها بين قضيبين من الحديد في باب السجن وارتعشت من فكرة سجنها داخل هذه الغرفة الصغيرة خلف القضبان وسط العتمة. يوجد باب خشبي قرب غرفة السجن. فتحت مزلاجه فإذا بها أمام نفق طويل. إنه نفق المهربين. فرحت لأنها وجدته بسهولة. دخلته مستعينة بالضوء المتسرب من القبو. رأت أمامها بابًا آخر صنع حديثًا، في آخر النفق. يفتح من الداخل وله قفل أيضًا. صُنع ليمنع دخول عابري السبيل من الشاطئ إلى الحصن عن طريق النفق.

فتحت الباب إلى الداخل وخرجت لتجد نفسها أمام تلال من الرمال جرفتها بغضب، الرياح العاتية وأمواج البحر الهائج إلى اليابسة. كانت الرياح الشديدة تعبث بشعرها وتلفه حول وجهها. مشت إلى الشاطئ أمامها. هل من الممكن أن تمشي من هنا إلى الخارج: إلى مصب النهر أو إلى الخليج الصغير حيث تلعب مع الأولاد يوميًا؟ كلا الطريقين غير سالك. تذكرت «ليماند» حين قال لها إن الرمال هنا مهلكة، متحركة.

من الأفضل لها أن تعود إلى الحصن عبر النفق. فجأة سمعت صوت الباب يغلق دونها. أغلقته الرياح المعاكسة أو التيار الهوائي. تفقدت المفتاح في جيبها. لم تجده. تذكرت أنها ولابد قد تركته في الباب الخارجي للحصن، حين دخلت. هذه المرة، لقد سجنت خارج الحصن. سجنها الآن خطر على حياتها. المد سيعلو بعد قليل ويغمرها. ربما تستطيع أن تتسلق الصخور الحادة التي كان الحصن مبنيًا فوقها. خطر انزلاقها ووقوعها كبير. بدأت تتفحص الصخور علّها تجد بعض المواضع لتثبيت يديها ورجليها إن فكرت في التسلق.

سمعت صوت الباب يفتح. وظهر أمامها شخص بلباس رمادي وقميص أسود، إنه «ليماند». وقف ينظر إليها بعينين باردتين خاليتين من أي تعبير. وجهه جامد كالتمثال المنحوت. مد يده إلى جيبه وأخرج المفتاح ثم قال:

– أعتقد أنها المرة السابعة التي أنقذك فيها. خطبتنا هي السادسة. في المرة التالية حين تدخلين من باب الحصن لا تنسي المفتاح في الباب. أخفت رغبة ملحة في أن تركض إليه وإلى ذراعيه لتشكره على إنقاذها... ولكنها مشت من قربه ودخلت إلى النفق.

– لن يكون هناك مرة ثانية. سأغادر «دانكريغان» اليوم. من أجل ذلك حضرت لأرى السجن والقبو. لقد عادت «مرتا» و «بيل» من شهر العسل وأخذا «ديرميد» معهما إلى «بروكفيلد». لا داعيَ إلى بقائي هنا. سأغادر مع «ديريك». أغلق الباب الخارجي للنفق. بدأ سيرهما في داخله. النفق رطب وبصيص نور يصله من القبو. كانا متقاربين لدرجة أنها كانت تسمع أنفاسه وتحس دفء جسمه. أسرعت في مشيتها. كيف يمكنها أن تكون قريبة جدًا منه ولا تستطيع أن تلمسه؟ هذا أكثر مما تستطيع احتماله. وها قد اقتربت ساعة الفراق بينهما.

– هل ترغبين في الرحيل؟

– عليّ تدبير أمري من أجل الجامعة. لا أعرف بعد إذا كان قد قبل طلبي لأتابع دراستي. قال:

– إذن، ما زال علمك أهم من أي شيء آخر تفعلينه؟ ظننت أنه ربما تبقين مع فريق العمل الذي سيقوم بالتنقيب في الجهة الثانية من التلة. نظرت إليه.

كان واقفًا قرب الباب يتابعها بعينيه.

– أحب ذلك لكن... قالت تغالب دموعها حتى لا يظن أنها مثل «مرتا» لا تحصل على شيء دون سلاح الدموع.

– لكن ماذا؟

– أسهل لنا أن نفسخ خطبتنا إذا رحلت. قالت وعينيها تنظر إلى الأرض لتخفي دموعها المتساقطة غصبًا عنها.

– أعتقد ذلك. هل تريدين فسخ الخطبة؟

– أليس هذا ما اتفقنا عليه؟

– أعرف. مشى ناحيتها فجأة. قفزت إلى الوراء حيث أصبح الباب الخشبي خلفها.

– لنفترض أنني لا أريدك أن ترحلي وإنني أفكر جديًا في أن أسجنك هنا في الحصن لئلا تستطيعي الرحيل. قال بحنان وقد اقترب منها أكثر وشاهدت بريق عينيه كالصاروخ:

– سأطعمك، سأجلب لك اللحم والشراب، وبعد الطعام والشراب أعانقك. وقبل أن ينتهي الليل تعترفين بأنك تحبين ذلك.

– «ليماند». كان قد وضع يديه على الباب وحاصرها بينهما:

– أنت تحيك خرافة جميلة كلها أحلام ساحرة. ولكنني لا أستطيع البقاء.

– لم أسألك عما إذا كنت تستطيعين البقاء. قلت لك إذا كنت ترغبين في البقاء. يوجد فرق بين الحالتين. إنني أرحب بك إذا رغبت ليس فقط لنهاية الصيف بل قدر ما تشائين. سألته وهي تكاد لا تصدق ما تسمع:

– وهل هناك من شروط؟

– شرط واحد فقط. أن تتزوجينني. هل يمكنك اتخاذ مثل هذا القرار؟ هل يمكنك الهبوط من برجك العالي العلمي وتتنازلين وتتزوجينني؟! أنا أحد الملاك، مفلس، نظرته إلى الحياة نظرة مادية صرف، اسم عائلته ملطخ بالسواد. إذا وافقت سأعمل قصارى جهدي ألا أعطيك فرصة للندم على قرارك. قربه بدأ يعذبها. كانت تتمنى أن تعانقه بكل ذرة من كيانها، تتمنى أن يلفها بعواطفه. رغبتها تجعل استعمال عقلها أمرًا مستحيلا.

– وهل يجب عليّ اتخاذ قراري الآن؟

– نعم. أو أسجنك. قالها بجدية ودون أن يضحك أو حتى يبتسم.
– وكيف لي أن أقرر وأنا لا أعرف شعورك نحوي؟ كنت في الأسبوع الماضي بعيدًا عني. ظننت أن رحيلي يسرك، وإنني إن فسخت الخطبة ستعود إلى «هيلين» وتصل ما انقطع بينك وبينها من حبل الود. لقد كانت تزورك يوم الأحد. ظننت أنك أخبرتها بحقيقة خطبتنا المزيفة.
– وما تزال حساباتك ضعيفة. لا أحد يعرف حقيقة خطبتنا الزائفة ولن يعرف أحد إذا استطعت. لقد حضرت «هيلين» لتعتذر عن تصرفاتها الحمقاء. حضرت تودعني قبل رحيلها إلى «غلاسكو». لو كنت موجودة لاعتذرت لك أيضًا. كل ما يربطني بها هو حب من طرف واحد، من جانبها. كانت تعتقد أننا كنا نرتبط بعلاقة محبة. كل فترة بقائي هنا في «دانكريغان» لم تكن لتفرق بيني وبين «كروفورد». كان صوته يضحك وهو يتذكر حيله مع أخيه في الماضي.
– إذن. لماذا أهملتني الأسبوع الماضي؟
– لأنني ظننت أنك لا ترغبين في بعدما وصل صديقك، باحث التاريخ. أنا لا أحب أن أضايقك أو أضايق غيرك. لديَّ كبرياء آل «كالدويل» ولا يسرني أن أكون عائقًا مربكًا لك. كان عليَّ أن أترك لك الخيار بيننا، والآن بعد أن رحل صديقك وبقيت أنت هنا...
– ذهب «ديريك»؟ متى؟
– كان في طريقه خارج السور حين عدت من الخارج يصحب معه «جوني» إلى «كيركتون». أخبرني «جوني» بأنك في الحصن. اقترحت أن أفتش عنك لتوديعه. قال إنه لا يستطيع الانتظار. لديه موعد مهم وخاص في «كاليزل» أخبرني بأنه لا يعتقد أنك ستحضرين إلى «دولشستر» في شهر تشرين الأول (أكتوبر) بدء السنة الجامعية. قال إنه يتفهم أسبابك شعرت عندئذ بأن أملي أصبح كبيرًا في الفوز بك وعليَّ أن أتمسك بك بقوة. والآن ماذا نفعل يا ساحرتي الجميلة؟ السجن؟ أو التسليم لقوة نشعر كلانا بأنها أقوى منّا. قالت وهي تركض لحضنه ولذراعيه:
– نسلم.
– هل من شروط؟
– هناك شرط واحد!

– ما هو.
– حين أقول لك إنني سأتزوجك لأنني أحبك عليك ألا تفكر في أن الكلمة تؤمن مصالح خاصة لي وامتيازات.
– أعدك بذلك. وأفضل الآن أن نترك جو النفق الرطب ونذهب إلى المنزل قبل أن أتكلم معك في الحب.
– هل هذا صحيح؟
– أنت صعبة الإقناع ولكني سأجرب، أنت أول زهرة ألتقطها وأرغب في أن تبقي معي. أنت أول امرأة طلبت إليها أن تتزوجني. لا أعرف طريقة أعبر لك بها عن عميق شعوري نحوك. لقد بقيت في منزلي فترة زمنية وتعرفين عني الكثير. هل أطلب منك أن تتزوجيني لو لم تكن عواطفي نحوك أقوى من عواطفي لأي امرأة أخرى عرفتها؟
– إنني أصدقك ولكن لا أصدق أن ذلك قد حصل لي. لماذا أنا؟
– لأنك أول امرأة تهتم بعملي وبمنزلي. لا تهمك الألقاب ولا المراكز ولا المال. إنك تحتاجين دائمًا إلى من يقنعك بأنك لست شخصًا لا جنس معين له. إنك تحتاجين دائمًا إلى من ينقذك. أسباب وأسباب لكن من يهمه الأسباب؟! عانقها بحنان ثم أكمل:
– فقط عالمة التاريخ تهمها الأسباب والنتائج. كل ما أريده بقاءك في «دانكريغان» معي. وإذا لم تقبلي عليَّ أن أسجنك حتى لا تهربي. هذا ما يمكنني تقديمه لك وهو ليس بالشيء الكثير إذا ما قورن بالأبحاث والدرجات العلمية ومهنة التنقيب عن الآثار... أقدم لك كل ما عندي. وضعت يدها على فمه كي يكف عن الكلام. قالت بصوت مرتفع:
– أوه. «ليماند». إنه أكثر مما أحتاج. أنا أرغب فيما ترغب أنت. وكان هذا هو الحال منذ فترة.
– لنخرج من النفق. في المنزل ستجدين أنني لا أمانع في أن تقولي لي إنك تحبينني وتبرهنين لي على حبك. كان العناق سريعًا لكن الوعود كثيرة. صعدت «ساندي» السلالم من القبو إلى سطح الأرض. كان قلبها يغني طربًا بل فرحًا لأن حلمها قد تحقق. ستبقى مع الفارس الأسود في «دانكريغان» إلى الأبد.

تمت بعون الله